# عشرون عاماً على الحرب على العراق

دفاتر السفير العربي - 2023

## تقديم

نهلة الشهال | عشرون عاماً على الحرب على العراق ..... 3

## العراق

ميزر كمال | أنا كلّ هذه الوجوه الميّتة ..... 6

## فلسطين

رجا الخالدي | آفاق التحرر الفلسطيني بين حربين على العراق ..... 15

## مصر

منى سليم | حين حرّك الاجتياح الأمريكي للعراق دماء السياسة في مصر ..... 25

## الجزائر

عمر بن درة | عشرون عاما بعد الغزو: الدروس المستخلَصة من المأساة العراقية ..... 34

## سوريا

سمير العيطة | سوريا وتداعيات غزو العراق ..... 43

## شهادات من العراق

ديمة ياسين | جيل الفراق ..... 52
مبين الخشاني | «أوميتا فوبيا»: عيون الطفولة المفقوءة ..... 57
أماني الحسن | انتظرنا «ماتركس» ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ..... 63

***نصوص «شهادات من العراق» بالشراكة مع موقع «جُمّار»**

www.jummar.media

**لوحة الغلاف: سيروان باران - العراق**

**لوحات الدفتر: سندس عبد الهادي وسيروان باران - العراق**

العربي السفير
يصدر عن جمعية تقاطعات
www.assafirarabi.com

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG BEIRUT OFFICE
مؤسسة روزا لوكسمبورغ مكتب بيروت

تم دعم هذه المطبوعة من قبل مؤسسة «روزا لوكسمبورغ».
يمكن استخدام محتوى المطبوعة أو جزءٍ منه طالما تتم نسبته للمصدر.

# عشرون عاماً على الحرب على العراق


## نهلة الشهال

**أستاذة وباحثة في علم الإجتماع السياسي**

**رئيسة تحرير «السفير العربي»**


ليس احتفاء بهذا الحدث الجنوني الذي أعاد الاستعمار إلى أساليبه الأولى، الاحتلالية، بواسطة «بساطير» جنوده وقدرة الدمار المباشرة التي تمتلكها أسلحته، وبواسطة العبث بالمجتمع المستهدَف على كافة المستويات، بخلخلة بناه المدنية والعسكرية وتفكيك مؤسساته، ونهب وتدمير تراثه وآثاره، ولو كانت تمثّل شواهد على فجر نشوء البشرية وعلى كيفية تدبّر أحوالها في سومر وبابل وسواهما. وكل ذلك مترافق مع نهب ثرواته الحديثة، وعلى رأسها النفط.

لا نحتفي بمحو ما جهدت نخب المجتمعات الحديثة - وخاصة بعد الحربين العالميتين وبعد حروب دموية فظيعة ضد حركات تحررية هنا وهناك - في بنائه وفي إقراره كقوانينَ متوافَقٌ عليها ومؤسسات، ظلت عرجاء - صحيح - لعجزها عن تجاوز الطينة التي صُنعت منها، وظلت تحمل قدراً من الرياء لا يستهان به، وإنما مثّلت على الرغم من كل ذلك نسيجاً من «المبادئ» والضوابط المرجعية، وإن كانت تُخرق باستمرار. ولكنها هنا، مع الحربين العالميتين على العراق - بقيادة واشنطن ومشاركة لندن النشطة - وما بينهما وما تلاهما، انهارت لصالح تفلّت البربرية الخالصة. وكانت هذه البربرية المعلَنة بلا موارية متطابقة مع سيادة مرحلة الرأسمالية الحالية التي تُسمّى العولمة النيوليبرالية، والتي تفكّك المؤسسات والدول - والمجتمعات - لصالح حفنة من المتسلّطين، أقرب إلى المافيا منها إلى أي شيء أخر.

لا نحتفي بتلك المأساة التي يحق لمن يشاء الاشتباه بأنها إنما صُنعت أيضاً بتدبير إسرائيلي - صهيوني حاقد على بلاد الرافدين وأهلها، وقد صادف هوى مجانين المحافظين الجدد وتلاقى معهم، كما صادف انهيار التوازن الذي لعب دور الرادع في اشتغال تلك التركيبة الدولية البائسة، مع زوال الاتحاد السوفييتي و«معسكره الاشتراكي».

ولا نحتفي بما آلت إليه الأمور بعد ذلك من انقلاب السحر على الساحر، بتمكّن إيران «الجمهورية الإسلامية» من العراق واستباحته على كافة المستويات، وإيقاظ أحلام إمبراطورية قديمة ورثتها نخبته الجديدة، وبتشكّل «القاعدة» ثم «داعش» وتمكّنهما من النيل من استقرار بلدان ظنت نفسها منيعة ولا دخل لها بما يجري في ساحات «متخلفة» بعيدة، فأعادت اكتشاف أن الكرة الأرضية واحدة، وأنها مكوّرة فلا بعيد وقريب فيها، بل هي هشة وقابلة للتدمير بالمفرّق كما حدث، وبالجملة مع العبَث المستمر بالطبيعة والمناخ، بقصر نظر وعدمية صادمين، يعيدان طرح سؤال الجدوى من «التقدم»، بل ومن البشرية نفسها التي - وإن لم تُعدم بؤر من المقاومات - تبدو وكأنها ساهية عن الخطر الوجودي أو مستسلمة لـ«قدرها»، في معاكسة صارخة لنظريات الفلاسفة منذ القدم وحتى العصر الحديث.

نقـدّم هنـا نصوصـاً ثمانيـة تحمـل في طيّاتهـا كل ذلـك، صراحـة أو ضمنـاً. اخترنـا حقولهـا لأنهـا الأكـثر تعبـيراً عـن تلـك الحـال. النـص الأول افتتاحـي لميـزر كـمال عـن العـراق نفسـه وخرابـه، ثـم تتـوالى النصـوص، فيتنـاول رجـا الخالـدي أثـر هـذا الخـراب عـلى دفـع النضـال التحـرري الفلسـطيني إلى مـأزق يقـاوم الفلسـطينيون اليـوم لجعلـه باطـلاً أو عـلى الأقـل لمنـع إطباقـه عليهـم. وتلتقـط منـى سـليم أثـر تلـك الحـال العراقيـة في وقتهـا عـلى مـصر وكيفيـة تمهيدهـا لثـورة 2011، ويسـتخرج عمـر بـن درّة الـدروس التـي اسـتخلصتها الجزائـر ذات التقاليـد الثوريـة، وعـلى رأسـها أنّ تكبيـل المجتمعـات مـن قبـل السـلطات الاسـتبدادية المهيمِنـة عليهـا هـو أسـهل وصفـة لإضعافهـا وجعلهـا غـير قـادرة عـلى مقاومـة أيّ عـدوان، بينـما يعكـس نـص سـمير العيطـة حـال الاضطـراب التـي عمـت سـوريا بعـد «سـقوط» العـراق. بعدهـا نقـدّم بالاشـتراك مـع «جـمّار» - الموقـع العراقـي الشـاب الـذي خـرج مؤسسـوه مـن رحـم «السـفير العـربي» - ثلاثـة نصـوص هـي شـهادات معيشـة عـلى تلـك الفـترة، أولهـا لديمـة ياسـين التـي كانـت في حينـه شـابة في مطلـع حياتهـا، وثانيهـما لمبـين الخشـاني الـذي كان طفـلاً في الخامسـة وقـد بَقـرت مشـاهد أسـلحة الجيـش الأمريـكي عينيـه المريضتـين، وآخرهـا شـهادة أمـاني الحسـن، وكانـت طفلـة في السادسـة، عـلى كيفيـة احتـواء الرعـب والتعايـش معـه.

وهكـذا نـضيء عـلى اسـتمرار تلـك الحـرب، لأن نتائجهـا مـا زالـت فعالـة ومتفاعلـة، تسـتولد معطياتهـا كقنبلـة ارتداديـة متعـددة حلقـات الانفجـار، وتُنشـئ وضعيـات متجـددة في العـراق أولاً، المنهـوب والمسـتباح، وفي المحيـط ثانيـاً، وفي العـالم بأكملـه ثالثـاً. كانـت تلـك الحـرب عـلى العـراق حدثـاً عالميـاً... ومـا زالـت!

العراق

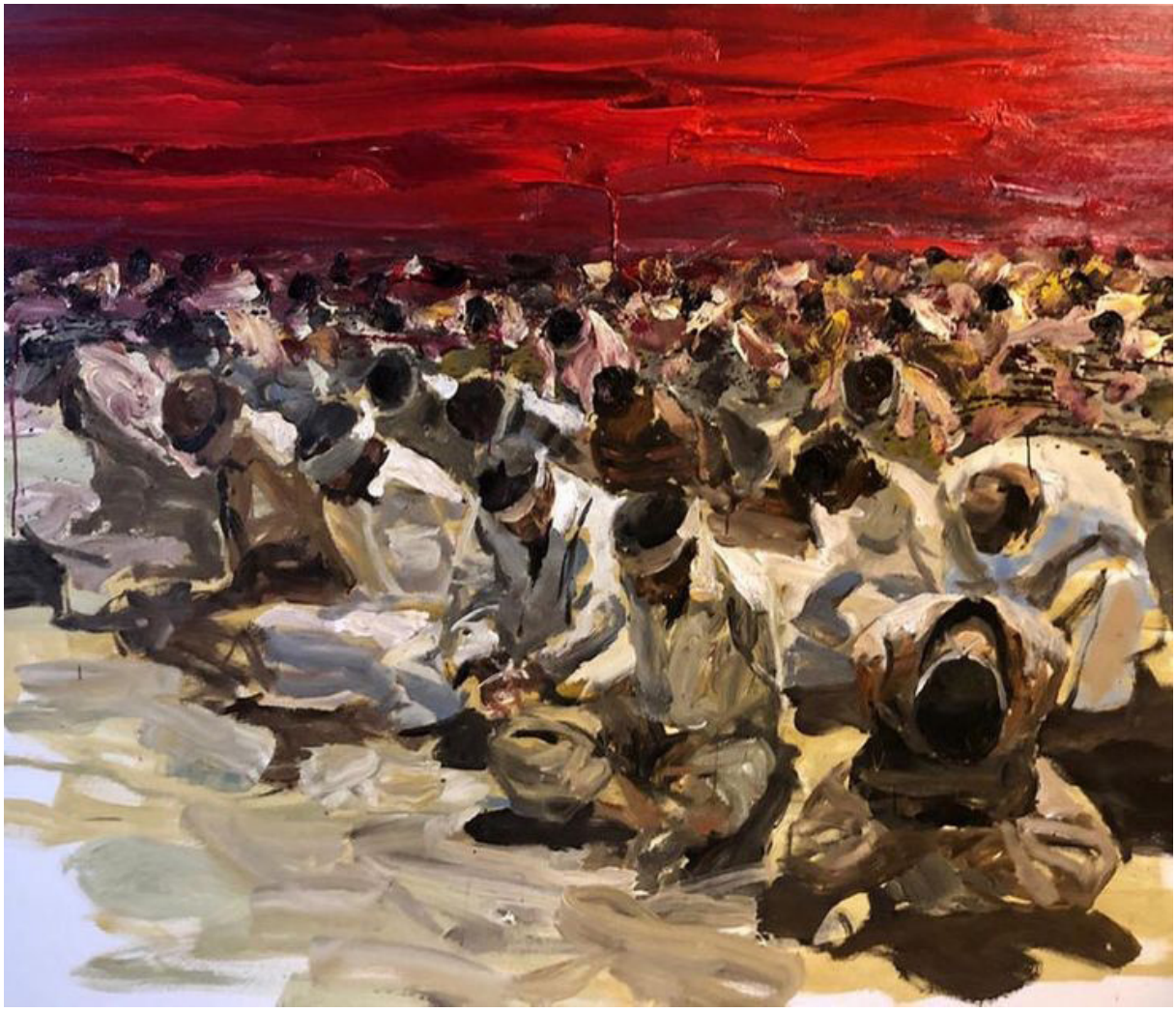

سيروان باران - العراق.

# أنا كل هذه الوجوه الميّتة

ميزر كمال

كاتب من العراق

الأرقام تقول إنّ 200 ألف مدنيّ قُتلوا في تلك الحرب، ومثلهم من الجنود، أبناء هؤلاء المدنيين. لكن لا أحد يحصي أعداد الخائفين في أوقات الحرب، الذين نجوا من الموت لكنهم شاهدوه. كنّا نحن مِن هؤلاء، نحفر خندقاً في الحديقة ونقتل العشب وعريشة العنب لكي ننجو. وها نحن نكتب ما حدث.

الملجأ تحت الحديقة، وعريشة العنب تمتدّ على الحائط كأنها تتفرع من مكان قديم، تتساقط أغصانها على تراب الحديقة، فهنا لم ينم العشب منذ زمن بعيد، منذ قرر أبي حفر ملجأ تحتها لنحتمي من الطائرات الحربية الأمريكية. فهي كانت تظهر فجأة فوق مدننا وترمي علينا القنابل الذكيّة. لقد حدث ذلك في «ملجأ العامرية[1]» المحصّن، وفي بيت ليلى العطار[2]، فلماذا لا يحدث هنا!

عادةُ الفجر أن يأتي بالنسيم، لكنه في ذلك اليوم جاء بالموت، الموت الذي لا يكتفي بقتلك، وإنما يحرقك حتى يذوِّب جسدك ويختفي، لذلك قيل في الأخبار أن عددهم كان 408، فمن عثروا عليهم كانوا هذا العدد، الآخرون لم يُعثَر عليهم مطلقاً، وكلّ ما ظلّ عنهم ذاكرة من رآهم: كانوا نائمين، وكانوا يستيقظون ويتوضّؤون لصلاة الفجر، وكانوا خائفين ويحتمون بكونكريت ملجأ العامرية وحديده لينجوا، لكنهم لم ينجحوا في ذلك.

حدث ذلك فجر الثلاثاء 13 شباط /فبراير عام 1991، عندما لم يكن أيّ عراقي يعرف أن طائرتي الشبح «أف 117» تحملان لهم الموت في قنبلتين ذكيتين، اخترقت الأولى سقفاً سُمكُه 1.5 متر، ودخلت الثانية على أولئك الخائفين، وانفجرت بهم. عثروا على 261 امرأة، و52 طفلاً، و95 رجلاً. لقد كانوا أكثر، لكن البقية أذاب أجسادهم الانفجار.

الأحاديث عن مجزرة «ملجأ العامرية»، والصور التي نُشرت عن الدمار، والرعب الذي كان يرتدي كل الوجوه في بغداد، أفزع أبي، فأراد أن يوفر لنا حمايةً لا يستطيع هو والدولة توفيرها، فقرر أن يحفر لنا ملجأ تحت الحديقة، كان يدري أنّه لن يصمد، فأبي يعرف وشاهد ماذا حدث في العامرية، لكن ماذا يفعل أبٌ عراقيٌّ عاجزٌ عن حماية عائلته من الصواريخ والقنابل الأمريكية؟ هو لا يريد الهروب. لذا سيحفر الخندق!

مات العشب في الحديقة، وماتت عريشة العنب، وصارت لعبةً خشبيةً نتسلقها مثل القردة، ونسرق أغصانها اليابسة لندخنها مثل السجائر. وكما يفعل الأب العراقي عادةً، عندما اكتشف الأمر: أزال العريشة من جذورها وعاقبنا بالفلقة والعقال، وحذّرنا من دخول الملجأ ما لم نسمع صافرات الإنذار في سماء المدينة.

ظلّت السماء هاجساً عندنا نحن العراقيين، لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تصل إلينا بعد، إنهم في قواعدهم البعيدة، لكننا قريبون منهم، والسماء كانت الطريقة والطريق. في 18 كانون الثاني/يناير 1991 وفي ليلة واحدة، سقط علينا من السماء 100 صاروخ «توماهوك»، تستخدم لأول مرة، ونُفِّذت في سمائنا 1300 غارة جوية. واستمرّ القصف 42 يوماً. نزل الموت على المدن مثل نزول الصواعق.

صحيفة «لوفيغارو» الفرنسية نقلت عن «ريمي فافريه»، مراسلها الذي كان في بغداد، وصف تلك الليلة: «لقد اشتعلت النيران في سماء بغداد.. ضربت طائرات F15 الأمريكية العراق على الرأس.. تمزقت سماء بغداد...» حينها كانت الكلمة للأسلحة، والولايات المتحدة تريد أن تقول لشعوب العالم: أنا الدولة العظمى في هذا الوقت. ولم يتبقَّ على رفس جثة الاتحاد السوفيتي وتفكيك دويلاته سوى الحرب مع دولة ضعيفة. ولا أضعف من العراق الذي يحكمه ديكتاتور يؤمن بالعروبة كما يؤمن الأعرابي بقبيلته الضيقة،

[1] هو ملجأ يقع بحي العامرية في بغداد، قصف أثناء حرب الخليج الأولى. أطلِقت إحدى الغارات الأمريكية يوم 13 شباط/فبراير 1991 على بغداد بواسطة طائرتين من نوع أف-117 تحملان قنابل ذكية. أدّت إلى تدمير الملجأ ومقتل أكثر من 400 مدنيٍ عراقيٍ من نساء وأطفال.

[2] ليلى العطار (27 تموز/يوليو 1944- 1993) فنانة تشكيلية عراقية، عملت مديرة للمتحف الوطني للفن الحديث ومديرة عامّة لدائرة الفنون. قُتلت هي وزوجها عام 1993، بغارة جوية أمريكية استهدفت مكتب المخابرات وطاولت منزلها في منطقة المنصور.

وبينما يتحدث في خطاب تلفزيوني عن الكفّار، وعن سليلي الأنبياء، وأوكار الدبابير، والجهاد، كانت 2250 طائرة مقاتلة ترمي القنابل على العراق، في أعنف وأطول حرب جوية في التاريخ البشري.

الأرقام تقول إن 200 ألف مدني قُتلوا في تلك الحرب، ومثلهم من الجنود، أبناء هؤلاء المدنيين. لكن لا أحد يحصي أعداد الخائفين في أوقات الحرب، الذين نجوا من الموت لكنهم شاهدوه. كنا نحن مِن هؤلاء، نحفر خندقاً في الحديقة ونقتل العشب وعريشة العنب لكي ننجو. وها نحن نكتب ما حدث.

## الحرب بدأت قبل ذلك بوقت طويل

الحرب بدأت قبل المرة الثانية 2003. لقد كان هنالك وقت طويل من الجوع، والخوف. لم يعد العراقيون يأبهون كثيراً للسماء، فالرؤوس كانت قد تعودت على الطأطأة. 13 سنة من الحصار كافيةً لتربية قطيع من الحيوانات المفترسة في الزنزانة، والعراقيون كانت في صدر كل واحد منهم زنزانة، الخوف والعنف والفقر والصمت والمرض والجهل كانت وحوشاً تكبر في الصدور، لذا فعندما جاءت المرة الثانية، أطلِقت تلك الحيوانات المفترسة، وما زالت تتكاثر حتى الآن.

في الأيام التي شُنق فيها صدام حسين، كنتُ أقضي بعض الوقت مع «صويلح» مجنون القرية وحكيمها أيضاً. كنا نجلس على الأنبوب الذي يزوّد القرية بالماء، كان يشبه أفعى خيالية تتمدد في القرية، وكان صويلح لديه ولع في سماع نشرات الأخبار، ويتقمص أحياناً دور مذيع النشرة الذي يقرأ حصيلة السيارات المفخخة والقتلى، ثم يتقمص فجأةً دور وزير الدفاع «سلطان هاشم أحمد» ثم يناشد الأمين العام للأمم المتحدة «كوفي عنان» لسحب الجيش الأمريكي من العراق والموافقة على شروط استسلام إسرائيل قبل أن يطلق عليها الرئيس القائد صدام حسين بقية الصواريخ، ويهدد «أبو مصعب الزرقاوي» وأتباعه إنْ هم قتلوا منتسبي الشرطة والجيش لأنهم أبناء عشائر أصيلة، وليس عندهم كهرباء أو ماء، وكبار القوم عليهم أن يجلسوا ويحلوا مشاكل العشيرة، وطرد عائلة آل شوكة منها لأنهم يأكلون الحرام ويعملون بتسليب السيارات والمسافرين على الطريق الدولي، ويمشون بسرعة عالية في الشارع.

الفوضى في المدينة كانت لا تختلف عن الفوضى في رأس «صويلح». كل شيء خرج عن السيطرة، العشائر تستحوذ على ما تصله يدها وسلاحها من ممتلكات الدولة: نُهبت مخازن الطعام، والبنوك، ومشاجب الأسلحة، ومستودعات الوقود والنفط، والمستشفيات والمدارس والجامعات، وبقية مؤسسات الدولة، وصار المواطنون يتجولون بمركبات الدولة. كانت القرية التي انتقلنا للعيش فيها تشبه ثكنة عسكرية، لكثرة مركبات «الزيل» والـ«جي أم سي» العسكرية التي سرقها المواطنون وحوّلوها للاستخدام الشخصي. وكان المؤمنون الذين لا يتأخرون عن خطبة الجمعة، يجتمعون ليلاً لسرقة سياج PRC الحديدي الذي يمتد على طول الطريق الدولي مع الأردن، ويبنون بيوتهم الجديدة من تلك الحواجز التي فككوها من جانبي ذلك الطريق، الذي يُسمى «الطريق السريع».

بالتأكيد لم يخرج الجميع للمشاركة في هذا الجنون، لكن الجميع شاهدوه وهو يحدث. والدولة التي كانت مخيفة، اختفت.. والكبت المحبوس في النفوس انفجر.. ولم يعد بالإمكان السيطرة عليه. فعلى بعد ساعة واحدة من بيتنا، كانت تدور حرب أهلية، بين السنة والشيعة في بغداد، وكانت الجنائز تأتينا من هناك، نحفر لها القبور، ونرشّها بماء الورد.

**{وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**

«الانحلال أخطر من الاحتلال» يرددها ذلك الشيخ الجليل دائماً، وكأنه يرى ما سيحدث. أمين مكتبة الجامع الكبير، الشيخ «خليل إبراهيم الكبيسي»، اختار العزلة على كل ذلك الخبل الذي كان يحدث، لكنّه لم يغلق باب المكتبة على سائل أو محتاج. وكان من يأتي لطلب المشورة والبركة كثيرون جداً، كانوا يعيشون قصصهم ثم يأتون لروايتها في المكتبة. كنتُ أعيش في المكتبة، أرى وأسمع أحياناً.

في زاوية بعيدة ومخفية في المكتبة، كان هنالك دُرج كُتب عليه: «بحوث خاصة»، يُفتح مرة أو مرتين في الأسبوع، ولا يحدث هذا إلا عندما يأتي من لديه مفتاح الدُرج: رجل طويل القامة، يمشي ويتحرك بهدوء، وتصرفاته توحي بأن هذا الرجل عسكري، لكنه ما دخل إلى المكتبة إلا وهو يرتدي دشداشة بيضاء، وأحياناً يضع في يده مسبحة.

**الحرب بدأت قبل المرة الثانية 2003. كان هنالك وقت طويل من الجوع والخوف. لم يعد العراقيون يأبهون كثيراً للسماء، فالرؤوس كانت قد تعودت على الطأطأة. 13 سنة من الحصار... الخوف والعنف والفقر والصمت والمرض والجهل كانت وحوشاً تكبر في الصدور، لذا فعندما جاءت المرة الثانية، أطلقت تلك الحيوانات المفترسة، وما زالت تتكاثر حتى الآن.**

في كثير من الأحيان يجلس مع الشيخ «خليل» على انفراد، يتحدثون بصوت منخفض قليلاً، ويقطعون حديثهم عندما يدخل إليهم أحد ما، لكنني كنتُ أسمع الشيخ وهو يقول مشورته: الأحاديث كانت عن الجهاد، والاحتلال، وشكل الدولة، وموقف الإسلام من كل هذا الذي يحدث، وكان رأي الشيخ في كل مرة، أنّ ما يحدث هو «خبل جماعي» والنجاة فردية، والسياسة نجاسة، ورجال الدين هم أخطر ما يمكن أن يوجد في المجتمع، لأنهم الأكثر تأثيراً وإقناعاً وقداسة، والأكثر عرضةً لآفة «أمراض القلوب»، ونادرون جداً أولئك الذين قرروا قتل «الأنا» وأخلصوا عملهم لله وللناس ولأنفسهم. كان يسمي الغرور: الإيگو أو «ست نفوس». وكان الإيگو أكبر مشاكل العراقيين.

عرفتُ فيما بعد أن ذلك الرجل صاحب البحوث الخاصة كان «مجاهداً» في أفغانستان أيام الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي، قاتل مع «تنظيم القاعدة» هناك، وعندما غزت الولايات المتحدة العراق، صار أميراً في تنظيم القاعدة. لكنه تركهم فيما بعد، أو هم تركوه، لم يعد ذلك يشكل فرقاً، غير أن الفارق المثير هو السبب من وراء تلك القطيعة.

**عندما احتلت الولايات المتحدة العراق، لم يخطر ببالها أن الكلفة ستكون أكثر من أرباح النفط والسلاح، وأن العراق سيفلت منها كما تفلت السمكة من يد الصياد، وسيمسك بها صياد آخر، الصيّاد الإيراني، وقبضته أقوى، لأن إيران تعرف العراقيين جيداً، وتفهم من أين تؤكل الكتف.**

في واحدة من معارك تنظيم القاعدة ضد الجيش الأمريكي في مدينة «الرمادي»، أسروا مترجماً يعمل مع الجيش الأمريكي وكان من السودان. عندما سأله ذلك «الأمير» عن السبب الذي يجعله بصف العدو قال له: «الفقر». رددها وهو يبكي، فتكفل «الأمير» بإنقاذه وترتيب وصوله إلى بغداد على أن يتعهد بالعودة إلى السودان، وأهداه ساعة يد.

بالنسبة لتنظيم «القاعدة» وعقيدته الجهادية، فإنّ المترجم يجب قتله، وأرادوا ذلك. لكن ذلك «الأمير» قدّم الإنسانية وصلات العروبة على العقيدة، فتركوه وتركهم. وهذه كانت واحدة من الاختلافات والخلافات الجوهرية بين الجماعات المسلحة أو ما تسمى «المقاومة» التي تقاتل الجيش الأمريكي، وتنظيم «القاعدة».

بالنسبة للمقاتل في التنظيم فهو «مجاهد» في سبيل الله، والقتال فرض عين، والشهادة إحدى الحسنيين، أمّا الضحايا من المدنيين فيبعثون على نياتهم، لذلك أوغلوا في قتال الشوارع وتفجير السيارات المفخخة والعبوات الناسفة بين الأحياء السكنية، فبين الأحياء وفي الأزقة الضيقة يسهل قتل الجنود الأمريكيين، لأنهم غرباء، ولا يعرفون المدن وأهلها.

بالنسبة لمقاتل في «المقاومة» وغالبيتهم من أبناء العشائر والجيش العراقي الذي ألغاه وحلّه الحاكم الأمريكي «بول بريمر»، فالأمر ليس كما يراه تنظيم «القاعدة» ويريده أمراؤها. القتال بالنسبة لهم ضدّ المحتل فقط، وحتى يخرج من البلاد، وتحرير العراق من الاحتلال الأمريكي. وهذا بالنسبة لعقيدة تنظيم «القاعدة» يعد خيانة للإسلام والمسلمين، ورِدة تستوجب القتل.

في كتابه «لماذا تَقتُل يا زيد؟» يروي الصحافي والسياسي الألماني «يورغين تودينهوفر» قصةً من خلالها يمكن شرح الفرق بين عمليات المقاومة ضد الاحتلال، وجهاد تنظيم القاعدة ضد الجيش الأمريكي: كان زيد مكلّفاً بمهمة تفجير عبوة ناسفة على رتل للجيش الأمريكي في شارع 20 بمدينة «الرمادي». فعندما تمرّ سيارات «الهامفي» ممتلئةً بالجنود، سيضغط «زيد» على زرّ التفجير. لكنّه عندما مرّ الرتل العسكري من فوق العبوة لم يضغط زيد على الزر، لأنه شاهد رجلاً كبيراً في السن يمرُّ قريباً من الرتل. نجا 4 جنود أمريكيين على الأقل، لأن عراقياً واحداً يجب ألاّ يموت في هذه العملية. يصف «تودينهوفر» كيف استقبل المقاتلون «زيداً» بالأحضان وهنّؤوه على قراره بإنقاذ الرجل العراقي، حتى وإن لم تُنفَّذ العملية.

يناقش «تودينهوفر» عدائية الولايات المتحدة والفكرة الغربية عن محاربة الإرهاب، ويحاول صياغة تعريف جديد للإرهابي ومن يكون، في فصلٍ بكتابه أسماه «بحثاً عن الحقيقة»، ثم يسأل (ويؤكِّد أنّه لا يقارن): إن كان تنظيم القاعدة قد قتل 5 آلاف شخص بسبب عملياته الإرهابية، فمن قتل 70 مليون إنسان في الحرب العالمية الأولى والثانية؟ ويستطرد بالأسئلة التي تشرّح ازدواجية الغرب في تبرير الحروب، ويوضح قياسات العنف ومعدلاته بين الغرب وبين ما هو غير غربي.

«تودينهوفر» يحكي عن «زيد» وخسارته لشقيقيه اللذين قتلا بقناصة الجيش الأمريكي، وكيف تُجبر الحرب شاباً عمره 22 سنة، على حمل السلاح وقتال المحتل الذي يقتل الشباب ويدمر المدن بذريعة التحرير من نظام ديكتاتوري - وهو كذلك - ولكن التحرر من الديكتاتورية على الطريقة الأمريكية هو أسوأ من الديكتاتورية نفسها، فالكلفة كانت باهظة وما تزال.

## الرصاص الطائش أكثر من العصافير في المدينة

لم تكن كل الأيام متاحةً للخروج في المدينة، أحياناً تمرُّ الأيام الطويلة من حظر التجوال، والمعارك لا تهدأ في الشوارع. كان الرصاص الطائش أكثر من العصافير في المدينة، والجثث المرمية في الشوارع أكثر من المارة، والعبوات الناسفة المزروعة على الأرصفة أكثر من المقاعد، والمشي في المدينة مخاطرة، والذهاب إلى السوق مخاطرة أكبر، فهي تستدعي الدخول إلى مركز المدينة القديمة، هناك حيث حوّل الجيش الأمريكي مقر الحكومة المحلية إلى قاعدة عسكرية، وأمّنوا مساحة كيلومتر مربع حولها بالكاميرات والقناصة والحواجز، وتركوا بقية المدينة تغرق بالفوضى.

في ذلك الكيلومتر المربع كانت تُدار الصفقات والأعمال القذرة للجيش الأمريكي. كانوا يديرون محافظة الأنبار بالطريقة التي يدير فيها الجيش الأمريكي مناطق من العالم الثالث في أفلام هوليود: يعطون أشخاصاً محدَّدين - شيوخ عشائر وزعامات قبلية غالباً، ولصوصا - ملايين الدولارات لشراء ذممهم، وتجنيد

أتباع لحماية خطوط الإمداد الأمريكية. هذا كل ما كان يهم الجيش الأمريكي في ذلك الوقت، لقد أشاعوا فكرة الفساد التي تفشّت في كلّ العراق على الصورة الحالية.

**كل شيء خرج عن السيطرة، العشائر تستحوذ على ما تصل إليه يدها وسلاحها من ممتلكات الدولة: نُهبت مخازن الطعام، والبنوك، ومشاجب الأسلحة، ومستودعات الوقود والنفط، والمستشفيات والمدارس والجامعات، وبقية مؤسسات الدولة، وصار المواطنون يتجولون بمركبات الدولة. كانت القرية التي انتقلنا للعيش فيها تشبه ثكنة عسكرية، لكثرة مركبات «الزيل» والـ «جي ام سي» العسكرية التي سرقها المواطنون وحوّلوها للاستخدام الشخصي.**

عام 2008 صدر التقرير السنوي لديوان الرقابة المالية في العراق، وجاء فيه أن: «الجيش الأمريكي في محافظة الأنبار سلّم عام2007 مدير دائرة المجاري في مدينة الرمادي مبلغاً قدره 614400 (ستمائة وأربعة عشر ألف دولار) لتنفيذ مشاريع تخص الدائرة، لكن لا توجد أي معلومات لدى قسم الحسابات عن الكيفية التي صُرف فيها هذا المبلغ. وطلب ديوان الرقابة المالية فتح تحقيق في اختفاء هذا المبلغ.»

كان هذا المدير واحداً من مئات المسؤولين والموظفين وشيوخ العشائر الفاسدين الذين انضم إليهم «الحزب الإسلامي» في تقاسم المقاولات، التي أعطاها الجيش الأمريكي كهبات للمتعاونين معه، وكان أوّل ما تقاسموه مع «الحزب الإسلامي» عام 2007 - غير السلطة والمناصب - 70 مليون دولار إضافية لميزانية محافظة الأنبار، و50 مليون دولار تعويضات، و6000 وظيفة محلية، كانت تُوزّع في مضايف الشيوخ لكسب الولاءات من جماهير تلك القبائل.

**بالنسبة للمقاتل في «تنظيم القاعدة»، فهو «مجاهد» في سبيل الله، والقتال فرض عين، والشهادة إحدى الحسنيين، أما الضحايا من المدنيين فيبْعَثون على نياتهم. لذلك أوغلوا في قتال الشوارع وتفجير السيارات المفخخة والعبوات الناسفة بين الأحياء السكنية، ففي الأزقة الضيقة يسهل قتل الجنود الأمريكيين، لأنهم غرباء، ولا يعرفون المدن وأهلها.**

هذه البيئة الفاسدة، والعدائية، مناسِبة جداً لنمو التطرف بكل أشكاله: الدينية، القبلية، والحزبية. وهذه حين تتفشّى في مجتمع ما، فإن الدولة وقوانينها تضعف ولا يعود لها تأثير فيما يجري. وهنالك دائماً ضدٌ نوعي لوسائل الدولة: فالقانون بضده الإيمان (بالدين والطائفة والقبيلة)، وهذا الإيمان أقوى. والسلاح الرسمي، أو ما يُسمى بأدوات «العنف الشرعي»، بضدها سلاح العشيرة والجماعة المسلحة والمليشيا، وهذه سلاحها أيضاً أقوى وأكثر تأثيراً. وهذا ينسحب على كل البيئات العراقية بعد 2003. في البيئات السُنّية حدث ويحدث هذا، وفي البيئات الشيعية حدث هذا في سيناريو لا يختلف إلا بالديكور، والأزياء، واللهجة، والطقوس.

منذ البداية، تعامل الجيش الأمريكي والإدارة في واشنطن مع العراقيين مثلما تعامل البريطانيون مع الهنود. لقد فشلوا في فهم الزمان والمكان لكل احتلال، وهذا ما زاد الوضع سوءاً. وما ضاعف جهل الأمريكان جهلاً تلك الأحزاب والشخصيات البديلة لحقبة البعث، الذين جاؤوا لحكم البلد، والسيطرة على العراقيين الذين انفلتوا للتو.

لقد أنشأت واشنطن نظاماً جديداً يقوم على المحاصصة، ومن خلاله يمكن للسلاح والمال الفاسد أن يُمكِّن جماعات من اللصوص من الاستحواذ على الدولة بكل مؤسساتها. بدأ ذلك في الطريقة التي أسّس بها

الحاكم الأمريكي للعراق «بول بريمر» مجلس الحكم الانتقالي، وكان اختيار العضو في هذا المجلس يخضع لافتراض بريمر أن هذا العضو يمثل الشيعة، أو الأكراد، أو السنة، أو أيَّ أقلية، وهي كثيرة في العراق الذي لا يعرفه «بول بريمر».

> كان الجيش الأمريكي يدير محافظة الأنبار بالطريقة التي يدير فيها الجيش الأمريكي مناطق من العالم الثالث في أفلام هوليود: يعطون أشخاصاً محدَّدين - شيوخ عشائر وزعامات قبلية غالباً، ولصوصا - ملايين الدولارات لشراء ذممهم، وتجنيد أتباع لحماية خطوط الإمداد الأمريكية. هذا كل ما كان يهم الجيش الأمريكي في ذلك الوقت، لقد أشاعوا فكرة الفساد التي تفشّت في كل العراق على الصورة الحالية.

يقول الزعيم الكردي مسعود بارزاني: إن «بريمر» اجتمع بهم وأخبرهم أنّه «يمثل الشرعية الدولية، ومجلس الأمن قرر أن هذا احتلال، هي كلمة بغيضة وعليكم الاعتياد عليها، وسأشكل منكم لجنة مستشارين، لكن لا تنتظروا الموافقة على كل اقتراحاتكم». يصفه بارزاني بأنه «صلف ويجهل المنطقة».

## الأرقام التي لا تكفي

عندما احتلت الولايات المتحدة العراق، لم يخطر ببالها أنّ الكلفة ستكون أكثر من أرباح النفط والسلاح، وأنّ العراق سيفلت منها كما تفلت السمكة من يد الصياد، وسيمسك بها صياد آخر، الصيّاد الإيراني، وقبضته أقوى، لأن إيران تعرف العراقيين جيداً، وتفهم من أين تؤكل الكتف. فقد اتهم وزير الداخلية الأسبق «فلاح النقيب» إيران بتفجير مرقد الإمامين العسكريين المقدسَين عند الشيعة في مدينة سامراء (السنّية)، متحدثاً عن معلومات تتضمّن رصد إيران مبلغ 200 مليون دولار لنقل رفات الإمام علي الهادي من سامراء إلى إيران، باعتباره إماماً شيعياً أسيراً في مدينة سنّية.

> منذ البداية، تعامل الجيش الأمريكي والإدارة في واشنطن مع العراقيين مثلما تعامل البريطانيون مع الهنود. لقد فشلوا في فهم الزمان والمكان لكل احتلال، وهذا ما زاد الوضع سوءاً. وما ضاعف جهل الأمريكان جهلاً تلك الأحزاب والشخصيات البديلة لحقبة البعث، الذين جاؤوا لحكم البلد، والسيطرة على العراقيين الذين انفلتوا للتوّ.

الحرب الطائفية التي دارت بين السنة والشيعة بين عامي 2006 - 2007 أسست لعراق الجماعات المسلحة والأحزاب الدينية المتطرفة، والمليشيات التي لا تعترف بالهوية الوطنية هويةً جامعة، وإنما ترى الجماعة والأمة في خلافةٍ إسلامية عابرة للحدود، تطيع ولي الأمر، وهو الخليفة عند السنة، ونائب المهدي الغائب، الولي الفقيه عند الشيعة، وما دونهما زعامات ومقدسين لا حصر لهم.

في التجربة العراقية مع الاحتلال الأمريكي، يصعب تشريح ما حدث كما حدث بالفعل، لأسباب تتعلق بالجغرافيا والتاريخ والثقافة والدين والعشيرة والقومية. فالحالة العراقية فريدة التعقيد والاشتباك، لكن الأرقام دائماً يمكن أن تعطي صورةً عامة لما حدث. وما حدث مأساة لا يمكن تجاوزها بالنسبة للعراقيين.

عـام 2006 أصـدرت مجلـة «لانسـيت» الطبّيـة البريطانيـة دراسـةً بعنـوان: Mortality before and after the 2003 invasion of Iraq: cluster sample survey، كشـفت فيهـا عـن عـدد القتـلى العراقيـين منـذ 2003، وكانـت الإحصائيـات تتحـدث عـن 655 ألـف قتيـل. في ذلـك الوقـت كان هـذا العـدد يمثـل 2.5 في المئـة مـن عـدد السـكان الـكلي، وذكـرت الدراسـة أن 56 في المئـة مـن الضحايـا قُتلـوا برصـاص الجيـش الأمـيركي، و13 في المئـة قُتلوا بسـيارات مفخخـة، و13 في المئـة قُتلوا بالقصـف الجـوي، و14 في المئـة قُتلـوا بالقصـف المدفعـي وبالدبابـات.

> لقـد أنشـأت واشـنطن نظامـاً جديـداً يقـوم عـلى المحاصصـة، ومـن خلالـه يمكـن للسـلاح والمـال الفاسـد أن يُمكِّـن جماعـات مـن اللصـوص مـن الاسـتحواذ عـلى الدولـة بـكل مؤسسـاتها. بـدأ ذلـك في الطريقـة التـي أسـس بهـا الحاكـم الأمريـكي للعـراق «بـول بريمـر» مجلـس الحكـم الانتقـالي، وكان اختيـار العضـو في هـذا المجلـس يخضـع لافـتراض بريمـر أن هـذا العضـو يمثـل الشـيعة، أو الأكـراد، أو السـنّة، أو أيّ أقليـة، وهـي كثـيرة في العـراق الـذي لا يعرفـه «بـول بريمـر».

أرقـام أخـرى وثّقهـا مركـز ORB [3] عـام 2008 في دراسـة بعنـوان: New Analysis “confirms” 1 million+ Iraq casualities، ونسـبة الخطـأ فيهـا 1.7 في المئـة، ذكـرت أن عـدد القتـلى العراقيـين تجـاوز مليـون قتيـل حتـى آب/أغسـطس 2007. لكـن هـذه الدراسـة لم تتضمـن قتـلى محافظتـي الأنبـار وكربـلاء. وفي بغـداد وحدهـا - حتـى ذلـك التاريـخ - فقـدت 40 في المئـة مـن الأسر أحـد ذويهـا، كـما أن 40 في المئـة مـن القتـلى أصيبـوا برصـاص الجيـش الأمـيركي، و21 في المئـة ماتـوا بسـيارات مفخخـة و8 في المئـة قُتلـوا في غـارات جويـة و4 في المئـة قُتلـوا في الحـرب الطائفيـة.

> الحـرب الطائفيـة التـي دارت بـين السـنة والشـيعة بـين عامـي 2006 - 2007 أسّسـت لعـراق الجماعـات المسـلحة والأحـزاب الدينيـة المتطرفـة، والمليشـيات التـي لا تعـترف بالهويـة الوطنيـة هويـةً جامعـة، وإنمـا تـرى الجماعـة والأمـة في خلافـةٍ إسـلامية عابـرة للحـدود، تطيـع ولي الأمـر، وهـو الخليفـة عنـد السـنة، ونائـب المهـدي الغائـب، الـولي الفقيـه عنـد الشـيعة، ومـا دونهـما زعامـات ومقدسـين لا حـصر لهـم.

عـدّاد القتـلى لم يقـف عنـد ذلـك الوقـت، اسـتمرَّ بعدهـا بوتـيرة لم تهـدأ، وبلـغ ذروتـه بعـد اجتيـاح «تنظيـم داعـش» للبـلاد، وبـدء حكايـة أخـرى للحـرب، خلّفـت - غـير القتـلى - أكـثر مـن 7 ملايـين لاجـئ، و8 ملايـين نـازح داخليـاً في العـراق وسـوريا. أمـا بالنسـبة لخسـائر الولايـات المتحـدة - بالإضافـة إلى 5000 جنـدي قتيـل - فقـد كلّفهـا غـزو العـراق 2.9 تريليـون دولار، بحسـب تقاريـر مـشروع تكاليـف الحـرب (Cost of War) بجامعـة بـراون الأمريكيـة.

[3] منظمة صحافية عالمية مقرها الولايات المتحدة الأمريكية.

فلسطين

«نفَس» - سندس عبد الهادي - العراق. مواد مختلفة على قماش، *2010*.

# آفاق التحرّر الفلسطيني بين حربين على العراق

رجا الخالدي

باحث في التنمية الاقتصادية من فلسطين

ترجمته عن الإنجليزية: صباح جلّول

فيما هيّأت الحرب الأولى على العراق الظروف لجلوس العرب على الطاولة نفسها مع الإسرائيليين، فإنّ الحرب الثانية بعد عقدٍ من الزمن، سرّعت الاعتراف بشرعية إسرائيل ودمجها (أو تسيّدها) في المنظومة الأمنية الاقتصادية للمنطقة في نهاية المطاف. ولعلّ قبول الأنظمة العربية بـ«السلام والتفاوض والاعتراف» في نهاية المطاف كان أعتى الارتدادات الناجمة عن الحربين على العراق، فيما يُحاك الفصل الأخير من هذه العملية في عام 2023.

## إلى أيّ درك وصلنا؟

لم تكن آفاق التحرر الوطني الفلسطيني يوماً مرتبطة حصراً بالقوّة النسبية لكلّ من الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي في الصراع الذي يستعر منذ ما يقارب قرناً من الزّمن. لطالما لجأ الطرفان إلى التحالف مع أو الاعتماد على أطراف خارجية ودول ذات مصلحة سياسية أو استراتيجية في ما يخصّ السؤال العالق: أيّ الشعوب تمتلك أيّ الحقوق في فلسطين؟ فيما منحت القوى الاستعمارية والامبريالية المشروعَ الصهيوني الاستيطاني منذ انطلاقته الدعمَ والتشريعَ والتمويل اللازمِين لاستمراره، كانت فلسطين تجد عمقها الاستراتيجي دائماً بين الشعوب العربية، متجذّراً في مفهوم «الأمة العربية» وقضيتها الأساس فلسطين. من هنا، بدت آفاق التحرر الوطني الفلسطيني أكثر أو أقلّ إمكاناً في مراحلَ مختلفة بحسب مدى وعمق الدعم العربي الرسمي والشعبي.

أتتبّع كيفَ هُشّم واندثر رابط التضامن العربي مع فلسطين - ذاك الذي اعتُبِر وثيقاً - حتّى لم نعد نجد اليوم سوى حفنة من الدول العربية الملتزِمةِ مبادئ العروبة. تبدأ الرواية في بغداد عام 1978، حيثُ سُجّلت لحظة مفصلية شكّلت ذروة العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية في القمة العربية التي انعقدت تحت عنوان «الصمود والتصدّي»، بالتفاف الدول العربية عقب معاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية حول منظمة التحرير التي غدت الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. شكّلت تلك المعاهدة - الصدمة الصدع الأوّل في جدار موقف «لا سلام، لا تفاوض، لا اعتراف» العربي التاريخي. علماً أن الموقف العربي اللفظي تجاه إسرائيل يتناقض مع الاعتراف الفعلي بها بحكم القبول العربي بقرار الأمم المتحدة رقم 242، الذي شكّل النهاية غير المعلنة «للصراع» العربي-الإسرائيلي وتحوّله إلى سلسلة من «النزاعات» التي انتهى معظمها.

بقي التحالف العربي الجديد، ومقرّه بغداد، وفياً لتعهّده دعم فلسطين اقتصادياً ودبلوماسياً، واستمرّ عزل جامعة الدول العربية لمصر لعدة سنوات. غير أنّ ذلك الاحتضان العربي كان مدمّراً لمنظمة التحرير الفلسطينية بطرق أخرى، حيث انطوى على انضمام ياسر عرفات إلى معسكر الدول العربية التي رفضت إدانة صدام حسين إثر غزوه الكويت، معتبرين أن الحملة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية تهدف إلى الدفاع عن إسرائيل وزرع تواجد إمبريالي في المنطقة بعد عقودٍ من سياسات ما بعد الاستعمار.

> **هل تكون جهوزيّة وقدرة آلاف الشباب الفلسطينيين المحبَطين والشجعان لإعادة اختراع أساليب المقاومة المسلحة وتجديدها صنواً لنضال الانتفاضات العربية الشعبية ضدّ الأنظمة المستبِدة والرأسمالية المتوحشة؟ هل التفوّق العسكري للجيش الإسرائيلي والاستبداد المتفلّت للأنظمة العربية قادران على قمع المقاومة، مهما بلغ اختلال ميزان القوّة بين قوى الثورة وقوى الرجعية؟**

لم يعنِ ذلك فقط مزيداً من التفكك لشبكة التضامن العربي مع فلسطين، مع اصطفاف دول الخليج القوية والغنية (رفقة مصر) مع الولايات المتحدة الأميركية ضد العراق. فقد دفعت منظمة التحرير الفلسطينية، باعتبارها الحلقة الأضعف في التحالف المساند للعراق، الثمن الأغلى جراء رهانها (غير المحسوب) على موقفها الداعم لكتلة عربية ضد أخرى. فعلى الرغم من المواجهات العنيفة التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية مع عدد من الدول العربية على مدى عقودٍ من الزمن (في كلّ من الأردن ولبنان ومع سوريا وليبيا والعراق نفسه)، إلّا أنها تبنّتْ عموماً النأيَ بالنفس، محاوِلة التمسك بموقفها الرسمي المتمثل في «عدم التدخل في الشؤون الداخلية» لأشقّائها العرب.

بين تداعيات الحربين الأولى والثانية على العراق، هُشّم شِعار «القرار الفلسطيني المستقل» الذي تفاخرت

بـه منظمـة التحريـر الفلسـطينية، عـلى يـد القـوى الرجعيـة الإمبرياليـة العالميـة والإقليميـة التـي تدّعـي تفوقـاً في مجـالات الديمقراطيـة والحوكمـة الرشـيدة وحقـوق الإنسـان والخصخصـة. لكـن، وعـلى الرغـم مـن عقـود مـن الحـروب والمذابـح والدمـار الكبـير في فلسـطين وفي كثـير مـن الـدول العربيـة كذلـك، وحتـى مـع تفـشّي البدعـة الأحـدث المتمثلـة بالتطبيـع العـربي - الإسرائيـلي، فـإنّ جـذوة النضـال التحـرري الوطنـي الفلسـطيني لم تنطفـئ، كـما لم تخمـد شرارة الثـورة الديمقراطيـة بـين الشـعوب العربيـة.

## تداعيات حرب الخليج الأولى على حركة التحرّر الوطني الفلسطيني

كانـت تداعيـات حـرب الخليـج الأولى عـلى فلسـطين سريعـة وقاسـية وشـاملة، كـما أسـفرت عـن عواقـب سياسـية طويلـة الأمـد، يمكـن تلخيصهـا في أربعـة تداعيـات رئيسـية.

### 1. التداعيات الاقتصادية والاجتماعية

وقعـت الهزيمـة الفلسـطينية في لحظـةٍ بـدا فيهـا أن التحريـر في المسـتطاع، وزاد مـن مرارتهـا تفاقـمُ عواقبهـا الوخيمـة عـلى المجتمـع والاقتصـاد الفلسـطينيين. في آب/أغسـطس 1990، انقطـع التمويـل العـربي (سـواء الرسـمي أو الشـعبي) عـن منظمـة التحريـر الفلسـطينية، وهـو كان ضروريـاً لاسـتمرارية المنظمـة في منفاهـا العـربي مـا بعـد عـام 1982. في غضـون بضعـة أشـهر، أصبحـت المنظمـة غـير قـادرة عـلى دفـع رواتـب موظفيهـا العسـكريين والمدنيـين وغيرهـم في جميـع أنحـاء العـالم، وقـد فهمـت المنظّمـة جيـداً مـن ذلـك أنّهـا سـتُجبَر عـلى دفـع أثمـان إضافيـة لدعمهـا صـدام حسـين.

> **بـين تداعيـات الحربـين الأولى والثانيـة عـلى العـراق، هُشّـم شِـعار «القـرار الفلسـطيني المسـتقل» الـذي تفاخـرت بـه منظمـة التحريـر الفلسـطينية، عـلى يـد القـوى الرجعيـة الامبرياليـة العالميـة والإقليميـة التـي تدّعـي تفوقـاً في مجـالات الديمقراطيـة والحوكمـة الرشـيدة وحقـوق الإنسـان والخصخصـة.**

أمّـا الأثـر الآخـر الأبـرز فتمثّـل في طريقـة التعامـل مـع الفلسـطينيين الذيـن يعيشـون في الكويـت في أعقـاب تحريـر الكويـت، وبعضهـم عاشـوا هنـاك لعقـود طويلـة ولعبـوا دوراً أساسـياً في إدارة الخدمـات العامـة والاقتصـاد في البـلاد. اعتُـبِر هـؤلاء مـن أتبـاع منظمـة التحريـر الفلسـطينية المؤيّديـن للعـراق وعومِلـوا عـلى هـذا الأسـاس دونمـا تمييـز، فأُجـبر أكـثر مـن 400 ألـف فلسـطيني عـلى مغـادرة الكويـت ودول الخليـج عقـب انسـحاب العـراق مـن الكويـت، مخلّفـين وراءهـم منازلهـم ووظائفهـم وحياتهـم وخطـط مسـتقبلهم.

عـاد معظـم المرحَّلـين إلى الأردن وفلسـطين لعـدم قدرتهـم عـلى الانتقـال إلى دول الخليـج الأخـرى التـي بـدأت بدورهـا بالتضييـق عـلى الجاليـات الفلسـطينية فيهـا، والتـي كان دورهـا لا يقـلّ أهميـةً في اقتصـادات هـذه الـدول منهـم في الكويـت. لقـد أدى التشـظي الاجتماعـي الناتـج عـن هـذا الشـتات الفلسـطيني الجديـد إلى عواقـب اقتصاديـة فوريـة، فتشرذمـت العائـلات مجـدداً، وتحـوّل المقيمـون الفلسـطينيون في دول الخليـج مـن معيلـين يضخّـون مئـات الملايـين مـن الـدولارات سـنوياً عـبر تحويلاتهـم الماليـة إلى فلسـطين والأردن إلى لاجئـين مُعدَمـين مُعطَلـين عـن العمـل.

شـكّلت المقاطعـة العربيـة الماليـة لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية، والتـي اسـتمرت لمـدة خمـس سـنوات، ضربـة زادت مـن هشاشـة المنظمـة أمـام الضربـة التاليـة المتمثّلـة في «اتفاقيـة أوسـلو» التـي فضّلـت البراغماتيـة عـلى

المبدئيّة، وهو توجّه كانت تبنّته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بالفعل إلى حدّ كبير منذ 1974. لكن الأمر تسبب بضررٍ دائمٍ على الاقتصادات المحلية أيضاً: تمّ قمع الانتفاضة وانتخاب حكومة «سلام» إسرائيلية جديدة في عام 1992، مما مهّد لـ«أوسلو»، وعند ذلك فقط أصبح بإمكان منظمة التحرير الفلسطينية إعادة تعريف شروطها لـ«السلام والتفاوض والاعتراف» ومحاوَلة جرّ الحركة الوطنية الفلسطينية والشعب الفلسطيني نحو تلك التسوية التاريخية.

## 2. الانتفاضة الأولى، عزل منظمة التحرير الفلسطينية، ومؤتمر مدريد

كانت غالبية الدول العربية التي عارضت التحالف الأمريكي - الخليجي ضد العراق قادرة على تحمُّل نتائج موقفها وما نجم عنه مِن قطعٍ في بعض علاقاتها، إلّا أنّ منظمة التحرير الفلسطينية واجهت عواقب كارثيّة نتيجة مقاطعة الدول العربية الرسمية لها، خصوصاً في تلك اللحظة التي شهدت انطلاقة الانتفاضة الأولى وتنامي الالتفات الدولي حولها والتضامن العربي الشعبي معها. أدّى الزخم الذي وفّرته الانتفاضة إلى انطلاق مفاوضات سياسية بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية برعاية عربية، أفضت إلى إعلان منظمة التحرير الفلسطينية قيام دولة فلسطين المستقلة كتسوية تاريخية في عام 1988.

بحلول عام 1991، تلاشت آمال منظمة التحرير الفلسطينية في عملية سلام يقودها الفلسطينيون مستفيدين من الانتفاضة ومن التضامن العربي المتجدِّد بعودة مصر إلى جامعة الدول العربية. لم يعد ممثلو المنظمة موضع ترحيبٍ في الأروقة الرسمية العربية، فيما أُمعِن في عزل ياسر عرفات نفسه في منفاه في تونس حيث بقي بعيداً عن مراكز الأحداث والتطورات. رغم ذلك، كان على المنتصرين من الدول العربية والعالمية إعلان اهتمامهم بفلسطين بوصفها القضية الأساس في المنطقة، كما أنهم لم يتمكّنوا من تجاهُل الانتفاضة الفلسطينية التي كانت ما تزال ملتهبة وتحوّلت بحلول عام 1991 إلى مقاومة حرب عصابات مسلّحة.

عُقد بالتالي «مؤتمر مدريد الدولي للسلام» في الشرق الأوسط عام 1991، وعلى إثره تمّ إطلاق مسارين للمفاوضات: المسار الأردني/الفلسطيني-الإسرائيلي بشأن النزاع الأساسي، والمسار متعدد الأطراف للتفاوض بشأن القضايا الإقليمية، بما في ذلك إسرائيل. على الرغم من أن هذا المؤتمر الدولي كان مطلبَ منظمة التحرير الفلسطينية لوقت طويل، إلا أنّ مشاركة المنظّمة فيه اقتصرت على تزويد الوفد الفلسطيني بالتوجيهات خلف الكواليس. والظاهر أنّ رفض إسرائيل والدول العربية السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بتبوّؤ مقعد فلسطين كان غرضه التذكير بشكلٍ فجّ بأن منظمة التحرير لم تعد الوصيّ الوحيد على مصير فلسطين. فإن كانت حرب العراق ساهمت بفتح نافذة للسلام في فلسطين، إلّا أنّ شروط مدريد التي فرضها الحلف المنتصِر على العراق كانت منحازة إلى أبعد حدّ ضد الفلسطينيين، إلى أن انتهى بنا المطاف في «أوسلو»!

## 3. نهاية أسطورة إمكانيّة التفوّق العسكري العربي على إسرائيل

لطالما خالطَت كثيراً من التاريخ القومي العربي ادعاءاتٌ عجيبة قلّما دعمتها أحداث التاريخ، حول القدرات العربية على إلحاق هزيمةٍ (وشيكة) بإسرائيل على أرض المعركة: في كلّ من الأعوام 1948، 1967، 1973، و1982. ما يزال كثير من «المؤدلجين» يؤمنون حتى يومنا هذا بتلك الإمكانية: فقط لو توفّرت الإرادة، لو تطوّرت صناعاتنا العسكرية، لو أنّنا حصلنا على نخبة الأسلحة السوفييتية، لو كانت لدينا فقط أنظمة ديمقراطية مدعومة شعبياً... ومئة «لو» أُخرى.

في المقابل، كان هناك دائماً سياسيون فلسطينيون وعرب يوصفون بالـ«معتدلين»، إمّا ممّن لم يؤمنوا بالإمكانية الاستراتيجية لانتصار عربي عسكري على الآلة الحربية الإسرائيلية المتقدمة تقنياً بأشواط على تلك العربية، أو من أولئك المتحالفين مع المساعي النيوكولونيالية أو الصهيونية للقضاء على أيّة فرصة للعرب لمقارعة إسرائيل بندّية. أعادت انطلاقة الكفاح المسلّح لمنظمة التحرير الفلسطينية في الستينيات من القرن العشرين شيئاً من التوازن للمواجهة، على الأقلّ شكلياً، لكنّ الجيوش العربية لم تبرَح وضعيتها الدفاعية، حتى عندما استطاعت تحقيق بعضِ النتائج العسكرية على أرض المعركة في حرب 1973. في المقابل، وصلت تجربة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان إلى نهايتها الملحميّة والمدوّية عام 1982.

**في آب/أغسطس 1990، انقطع التمويل العربي (سواء الرسمي أو الشعبي) عن منظمة التحرير الفلسطينية، وهو كان ضرورياً لاستمرارية المنظمة في منفاها العربي ما بعد عام 1982. في غضون بضعة أشهر، أصبحت المنظمة غير قادرة على دفع رواتب موظفيها العسكريين والمدنيين وغيرهم في جميع أنحاء العالم، وقد فهمت المنظّمة جيداً من ذلك أنّها ستُجبَر على دفع أثمان إضافية لدعمها صدام حسين.**

حتى بعد الهزيمة التي لحقت بمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان في 1982، صعد الفلسطينيون على وقع انهمار الصواريخ الباليستية العراقية على إسرائيل عام 1991 إلى الأسطح ليهلّلوا لمنقذهم صدّام حسين، القائد العربي الذي أظهرَ أخيراً جسارةً عسكرية عربية منتَظَرة. عندما تبيّن أن معظم هذه الصواريخ كانت تحمل رؤوساً صاروخية عادية، عزا بعض الفلسطينيين ذلك إلى حنكة صدام الاستراتيجية. لكنّ هذا التضليل (أو الوهم) الجماعي في سنوات التسعينيات الفائتة حول امتلاك العراق للأسلحة النوويّة والتساؤل حول احتمال استخدامها كحلّ أخير - وهو ما روّجته إسرائيل بالدرجة الأولى - انهار تماماً في نظر الفلسطينيين بحلول عام 2003، ومعه انهارت بقايا الوعود العروبية الجوفاء التي أطلقها نظام وحشي وديكتاتوري.

## 4. أوسلو والتسوية التاريخية

لكنّ الإساءة الكبرى للقضية الفلسطينية أتت بفعلِ زلزال حرب الخليج الأولى، وما رافقه من انهيار حليف الكتلة السوفييتية. من مدريد مروراً بواشنطن ووصولاً إلى أوسلو عام 1993، التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بشروط ضعّفت إمكانية اتّباع استراتيجية وطنية مُجدِية. أُرجِئت جميع آمال المنظّمة في الحصول على التزام دوليّ بإنهاء الاحتلال والاستيطان وتحقيق الاستقلال الفلسطيني إلى ما بعد الفترة الانتقالية للحكم الذاتي التي كان من المفترض أن تستمر لمدة خمس سنوات، غير أنها متواصلة حتى يومنا هذا. سيبقى النقاش مفتوحاً بين المؤرخين حول إذا ما كان ينبغي تجنّب تلك التسوية التي أدّت إلى عودة منظمة التحرير الفلسطينية ومركز الصراع إلى داخل فلسطين. لكن ممّا لا شكّ فيه أن حرب الخليج الأولى أنتجت ظروفاً أدّت إلى حرف مسار حركة التحرّر الوطني الفلسطيني وأجندتها.

بعد توقيع منظمة التحرير الفلسطينية على «إتفاقية أوسلو» والاتفاقيات اللاحقة، كسبت المنظمة موطئ قدمٍ لطالما كانت تسعى إليه داخل فلسطين، بالإضافة إلى ما يشبه حكماً ذاتياً مستقلاً. أكثر من ذلك، استطاعت الحصول لأوّل مرة على اعتراف دولي بالشرعية، كما عادت إلى الحضن العربي. لكن استراتيجية عرفات «للهروب إلى الأمام» انتهت بشكل مأساوي إلى غير رجعة (كما برهنت السنوات الثلاثون الماضية)،

مع اندلاع الانتفاضة الثانية - رفضاً لوعود أوسلو الكاذبة التي آمن بها عرفات - وما تلاها من حصار مطوّل ضربته إسرائيل على عرفات في مقر الرئاسة، وصولاً إلى اغتياله. لعلّ المكاسب المحدودة لـ«أوسلو» كانت أيضاً المكاسب الوحيدة التي عُرِضت على الفلسطينيين مقابل حصولهم على الاعتراف الدولي والتخلي عن المقاومة المسلحة. حتى تلك الشروط (للاستسلام؟) تبدو الآن أقل سوءاً مما يرسمه اليوم اليمين الصهيوني العنصري الحاكم في إسرائيل للشعب الفلسطيني.

## الحرب الثانية على العراق ومحاولات إقصاء المسألة الفلسطينية

حرّكت التطورات التي شهدها عقد التسعينيات من القرن الفائت ديناميات أثّرت على الأوضاع السياسية في كلّ من العراق وفلسطين ووصلت ذروتها عام 2003. وكانت الحرب الأولى مستمرة بالفعل مع عقوبات غير مسبوقة على العراق طوال سنوات التسعينيات، جعلت منه منبوذاً من العدوّ والصديق على حدّ سواء.

**شكّلت المقاطعة العربية المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية، والتي استمرت لمدة خمس سنوات، ضربة زادت من هشاشة المنظمة أمام الضربة التالية المتمثّلة في «اتفاقية أوسلو» التي فضّلت البراغماتية على المبدئيّة، وهو توجّه كانت تبنّته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بالفعل إلى حدّ كبير منذ 1974. لكن الأمر تسبب بضررٍ دائمٍ على الاقتصادات المحلية أيضاً: تمّ قمع الانتفاضة وانتخاب حكومة «سلام» إسرائيلية جديدةً في عام 1992، مما مهّد لـ«أوسلو».**

### 1. فضح الوعود الفارغة لعملية السلام، الإنتفاضة الثانية، والحرب على الإرهاب

مع انتهاء الفترة الانتقالية التي نصّ عليها «أوسلو»، حان الوقت لأن تستبدل منظمة التحرير الفلسطينية حُسن نواياها بقفازات ملاكمة. كشفت محاولات عرفات للتمسّك بالثوابت الوطنية الفلسطينية في «كامب ديفيد» الموقف الإسرائيلي الحقيقي القائل: لا سلام، لا تفاوض، لا اعتراف. يبدو أن المحارب القديم بقي منيعاً أمام نصيحة إقبال أحمد وآخرين بخصوص جدوى النضال المسلح ضد إسرائيل من خارج أو داخل فلسطين، فقد لجأ عرفات (كما في عام 1990) إلى الخيار الأخير المتاح بنظره ونظر القسم الأكبر من المنظمة. سرعان ما تحوّلت الانتفاضة الثانية التي بدأت سلمية وشعبية إلى صراع مسلّح بين الفلسطينيين والإسرائيليين استمر لمدة خمس سنوات وانتهى بإخضاع منظمة التحرير الفلسطينية التي فُجعت بخسارة قائدها المؤسِّس.

قبل هزيمة ياسر عرفات وبالتوازي مع ظهور العمليات الانتحارية/الاستشهادية التي تبنتها حماس (وفصائل فلسطينية أخرى لاحقاً) والتي استهدفت أهدافاً مدنية في العمق الإسرائيلي، بدأ شبح الحرب الثانية القادمة على العراق يطلّ برأسه إثر هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001 التي طالت قلب الولايات المتحدة الأمريكية. على الفور، خلطت إسرائيل والولايات المتحدة بين المقاومة الفلسطينية و«تنظيم القاعدة» الإرهابي وأسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة. لم تفلح حتى الصور الترويجية لعرفات متبرّعاً بالدم لضحايا هجمات 11 أيلول/سبتمبر في تبديد ذلك الربط، إذ لم تعد الحقيقة تعني شيئاً في ذلك الجوّ المشحون الذي كان يهيّئ للحرب.

إذاً، تحوّلت «الحرب على الإرهاب» إلى مهمّة مشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، استهدفت (وما تزال) المقاومة المسلحة الفلسطينية (إسلامية كانت أو سواها) للاحتلال الإسرائيلي (التي يعتبرها القانون الدولي مشروعةً بالأساس). عوملت المقاومة كإحدى أذرع الخطر الإرهابي نفسه الذي يمثله «تنظيم القاعدة» ثمّ «تنظيم الدولة الإسلامية» (داعش) في مرحلةٍ لاحقة. كما مُهّد الطريق أمام استيعاب منظمة التحرير الفلسطينية في مرحلة ما بعد عرفات عبر مجموعة من التسويات السياسية والاقتصادية والأمنية مع إسرائيل، قيّدت سلطتها الذاتية ومنعتها حتى من محاولة تحقيق الاستقلال.

## 2. آخر محطّة في مسار القرار الفلسطيني المستقل

بعد التخلّص من سلطة عرفات وأساليبه، كانت النتيجة الطبيعية أن قُلّمت بوضوح أجنحة السلطة التي خلفته، بالإضافة إلى إخضاع قراراتها بشكل متزايد إلى إملاءات القوى الخارجية. صار البحث في الخيارات والمواقف مرتبطاً قبل كلّ شيءٍ بمصالح الأردن ومصر في علاقتهما مع إسرائيل والقوى الإقليمية والدولية. جُرجِرت سلطة محمود عباس أكثر من مرّة إلى جولات مضنية ولكن عقيمة من «مفاوضات السلام»، إلى أن توقّفت المحاولات الزائفة للدفع بعملية السلام مع مبادرة «أوباما-كيري» الأخيرة عام 2014. قبلت منظمة التحرير الفلسطينية الشروط السياسية التي فرضتها اللجنة الرباعية للوساطة، والتي قوّضت إمكانية تحقّق صيغة ديمقراطية فلسطينية تشمل حماس، في حين ثُبّتت معادلة «التنسيق الأمني» مع إسرائيل والولايات المتحدة. وتبقى هذه الأخيرة نقطة الخلاف الرئيسية في السياسة الداخلية الفلسطينية.

> **الظاهر أنّ رفض إسرائيل والدول العربية السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بتبوّؤ مقعد فلسطين في اجتماع مدريد كان غرضه التذكير بشكلٍ فجّ بأن المنظمة لم تعد الوصيّ الوحيد على مصير فلسطين. فإن كانت حرب العراق ساهمت بفتح نافذة للسلام في فلسطين، إلّا أن شروط مدريد التي فرضها الحلف المنتصِر على العراق كانت منحازة إلى أبعد حدّ ضد الفلسطينيين، إلى أن انتهى بنا المطاف في «أوسلو»!**

في هذه الأثناء، كانت سياسات واستراتيجيات وأولويّات الاقتصاد الفلسطيني تتحول إلى رهينة للمؤسسات المالية الدولية وأجندات المانحين، وبحسب قوالب «الإصلاحات» الجاهِزة نفسها التي دُشّنت في العراق الجديد «المحرَّر والديمقراطي». ففي كل من فلسطين والعراق، استُبدِلت الهياكل المعتادة للسلطة الحاكمة والمعايير السياسية التقليدية بصيغةٍ صُمّمت في واشنطن وفُرضت في كل رقعة طالتها موجات العولمة واللبرلة والخصخصة حول العالم. وبانضمام دول الخليج العربي إلى «إجماع واشنطن»، تمّ التخلّي عن حلم التكامل الاقتصادي العربي الإقليمي لصالح بناء علاقات مع الاقتصادات المتقدمة لـ«منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية». لكن كِلي البلدين كانا جاهزَين لتجارب مخْبرية سرعان ما تمّ التخلّي عنها، وهو ما أفرز بالنتيجة هذه الأنظمة الضعيفة والتابعة لجهات خارجية في كلّ من بغداد وأربيل ورام الله، وصولاً إلى غزة اليوم.

## 3. تعبيد الطريق للتطبيع العربي - الإسرائيلي

ليسَ مستغرَباً أن تطال تبعات تلك الحروب جميعَ الدول العربية، مِن الحربين المهولتَين على العراق إلى الحرب المستمرّة على الشعب الفلسطيني الذي يعاني تحت الاحتلال، فسلسلة الحروب الأهلية في كلّ

من سوريا واليمن وليبيا، بالإضافة إلى أثر الجرعات الكبيرة من اللبرلة الاقتصادية والتعديلات الهيكلية وأجندات الديمقراطية المستوردة في فلسطين والعراق ومصر (وقريباً في سوريا ولبنان وأيّة دولة «ممانِعة» أخرى في القرن العشرين).

**الإساءة الأكبر للقضية الفلسطينية أتت بفعل زلزال حرب الخليج الأولى، وما رافقه من انهيار حليف الكتلة السوفييتية. من مدريد مروراً بواشنطن ووصولاً إلى أوسلو عام 1993، التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بشروط ضعّفت إمكانية اتّباع استراتيجية وطنية مُجدِية.**

لعلّ قبول الأنظمة العربية بـ«السلام والتفاوض والاعتراف» في نهاية المطاف كان أعتى الارتدادات الناجمة عن الحربين على العراق، فيما يُحاك الفصل الأخير من هذه العملية في عام 2023. كانت الخطوة الأولى نحو التطبيع العربي الصريح مع إسرائيل مغلّفة بلغة التضامن العربي المعهودة من خلال «مبادرة السلام العربية» المدعومة من السعودية عام 2002، التي ربطت السلام العربي مع إسرائيل بالتوصل إلى «حلّ فلسطيني-إسرائيلي عادل». فيما هيّأت الحرب الأولى على العراق الظروف لجلوس العرب على نفس الطاولة مع الإسرائيليين، فإن الحرب الثانية بعد عقد من الزمن سرّعت الاعتراف بشرعية إسرائيل ودمجها (أو تسيّدها) في المنظومة الأمنية الاقتصادية للمنطقة في نهاية المطاف.

**تحوّلت «الحرب على الإرهاب» إلى مهمة مشتركة بين إسرائيل والولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، استهدفت (وما تزال) المقاومة المسلحة الفلسطينية (إسلامية كانت أو سواها) للاحتلال الإسرائيلي (التي يعتبرها القانون الدولي مشروعةً بالأساس). عوملت المقاومة كإحدى أذرع الخطر الإرهابي نفسه الذي يمثله «تنظيم القاعدة» ثمّ «تنظيم الدولة الإسلامية» (داعش) في مرحلةٍ لاحقة.**

مع ذلك، فحتّى الخطوط الحمر المتواضعة للمبادرة العربية لم تعد تملك تأثيراً رادعاً، في وقتٍ يتحقق فيه التطبيع بالفعل – ورأس حربته الولايات المتحدة الأمريكية - في العلاقات السياسية والاقتصادية والأمنية والاستراتيجية بين إسرائيل وعدد من الدول العربية، ويتمّ الترويج بأنّه حتميّ ووشيك في دول أخرى. بغض النظر عن العوامل المتعددة التي أدّت إلى تحوّلات في الخريطة السياسية الإقليمية وفي علاقة شعوب المنطقة بالقضية الفلسطينية، فإنّنا مُنينا بهزيمة استراتيجيّة بيّنة للقضية، قلّصت المجال الذي يسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالمناورة إقليمياً، وتلك كانت إحدى آليات البقاء الرئيسية للمنظمة عبر التاريخ، ويمثّل عاما 1990 و2003 نقطتي تحول رئيسيّتين في تلك العملية.

### 4. تعاظُم تأثير حركات المقاومة الإسلامية

ما تزال ارتدادات تلك الحروب على العراق تتفاعل داخل الحركة الوطنية الفلسطينية ضمن مشهدٍ عالميّ وإقليميّ متغيّر. يتجلّى أثرها النهائي في أنّ انهيار نظام البعث في العراق مثّل نهاية العديد من الأحلام القومية العربية، بما في ذلك في فلسطين. وكما أنّ المقاومة اليسارية والشيوعية للإمبريالية في المنطقة صعدت ثمّ خمدت، فكذلك خابت الوعود بمقاومة وطنية فلسطينية وبمقاومة قومية عربية في المقام الأوّل. لم تكن حروب العراق مجرّد مسامير محْكمة في نعش تلك الطموحات العربية، ولكنها مثّلت أيضاً دعوةً للإسلام

السياسي لدخول المعركة بلغته الرجعية ووسائله العنيفة وأشكاله التنظيمية الجديدة. ما زال يَنظر العديد من القوميين العرب إلى مقاومة «حزب الله» المسلّحة ضدّ إسرائيل وكذلك المقاومة «الإسلامية» في فلسطين كنموذجٍ ثوري فعّال ومُجدٍ في ترسيخ معادلة ردع عربي وفلسطيني ضدّ إسرائيل، بغض النظر عن أبعادها الأخرى.

**بغض النظر عن العوامل المتعددة التي أدّت إلى تحوّلات في الخريطة السياسية الإقليمية وفي علاقة شعوب المنطقة بالقضية الفلسطينية، فإنّنا مُنينا بهزيمة استراتيجيّة بيّنة للقضية، قلّصت المجال الذي يسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالمناورة إقليمياً، وتلك كانت إحدى آليات البقاء الرئيسية للمنظمة عبر التاريخ، ويمثّل عاما 1990 و2003 نقطتي تحول رئيسيّتين في تلك العملية.**

وُلِدت «حركة حماس» خلال الانتفاضة الأولى وتعزز حضورها بفعل إخفاقات «منظمة التحرير الفلسطينية» والفشل القومي العربي خلال حرب العراق الأولى. بموازاة ذلك، وجدت «حماس» فرصتها في أن تكون حركة منتخَبة بحرية وديمقراطية من قبل الشعب الفلسطيني في عام 2006، عقب هزيمة أخرى لمنظمة التحرير والمقاومة العروبية والوطنية. أما اليوم، فحتى تلك النسخة البديلة عن الأيديولوجيات المقاوِمة السابقة، والتي تسيطر بشكل كامل على غزة، أصبحت هي نفسها جزءاً مِن المشكلة التي تعترض طريق تحرير الشعب الفلسطيني من الاستبداد، تماماً كما السلطة الفلسطينية (الأسيرة للاحتلال) في رام الله.

## هل يمكن أن تكون فلسطين مهداً لعروبة جديدة؟

خلال عشرين عاماً فقط، تمّ استبدال المنطلقات الأساسية لحلّ الدولتين المقترح، فبدلاً من (إعادة) الأرض (الفلسطينية المحتلة) مقابل السلام (مع إسرائيل)»، أصبح الوضع الحالي هو أنّ إسرائيل تأخذ ما تشتهي من الأراضي مقابل عدم مواصلتها شنّ الحروب ضدّ الفلسطينيين. هو وضعٌ بشع، ولم يكن له أن يتحقق لولا أنْ دُمّر العراق أولاً، ومعه بضع دول عربية أيضاً.

ما تزال كثير من الأسئلة مفتوحة، وقد يكون لدى كلّ منا إجابات مختلفة عليها. هل أُخمِدت حقاً ونهائياً جذوة المقاومة؟ هل يمكننا أن نستشفّ نموذجاً جديداً للمقاومة الفلسطينية في سبيل التحرير بما يتجاوز القيمة الرمزية والمعنوية للموجة الجديدة من الفدائيين الفلسطينيين من القدس إلى غزة إلى جنين؟ هل يمكن أن يشكّل هؤلاء نموذجاً غير مرتبط بالأنظمة الفاقدة للشرعية وقادراً على إلهام المناضلين العرب الذين يقاتلون من أجل الحقوق السياسية والمدنية وحقوق الإنسان؟ هل تكون جهوزيّة وقدرة آلاف الشباب الفلسطينيين المحبَطين والشجعان لإعادة اختراع أساليب المقاومة المسلحة وتجديدها صنواً لنضال الانتفاضات العربية الشعبية ضدّ الأنظمة المستبدة والرأسمالية المتوحشة؟ هل التفوّق العسكري للجيش الإسرائيلي والاستبداد المتفلّت للأنظمة العربية قادران على قمع المقاومة، مهما بلغ اختلال ميزان القوّة بين قوى الثورة وقوى الرجعية؟

مصر

«معركة سومَر» سندس عبد الهادي - العراق. أكريليك على قماش، *2005*.

# حين حرّك الاجتياح الأمريكي للعراق دماء السياسة في مصر


منى سليم

كاتبة وصحافية من مصر


كان الاجتياح الأمريكي للعراق هو اللحظة التي هيّأت الفرصة. أجيال وجماعات من المعارضة، توالى تكونها ككرة الثلج، وكل موجة تفيض إلى ما بعدها. تشكلت «حركة كفاية» ومن رحمها خرجت مجموعات عدّة من أهمها وأكثرها تأثيراً «شباب من أجل التغيير» التي كان لها الحضور الأكبر في رفع صوت المعارضة ضد إجراءات الاستفتاء الشعبي على تعديلات دستورية رأوها صوريّة.

كانت تلك هي الحرب الأولى التي يتابعها المصريّون على الهواء مباشرة، بعد أن عرفت بيوت قطاع واسع منهم الأطباق الهوائية. وكانت الصدمة الأكثر تأثيراً على الرغم من أنّها ليست الوحيدة بالتأكيد.

جاء عام 2003 محمّلاً بأجواء الاستعداد للحرب على العراق، ليفجّر داخل العقل المصري كثيراً من التساؤلات المرتبطة بالماضي والحاضر والمستقبل. من بينها ما هو متعلق بالتعامل الرسمي بين النظامين الحاكمين في مصر والعراق، والجرح الذي ظلّ مفتوحاً بعد مشاركة مصر في حرب أمريكية سابقة على العراق، من منطلق «تحرير الكويت» عام 1991 مقابل إسقاط ديونها بقرار من «نادي الديون الدوليّ»، وكانت آنذاك قد بلغت ما يقارب 34 مليار دولار. وقد جاءت الحرب الأمريكية الثانية على العراق باحتمالات أن تتورّط مصر في موقف معيب جديد كالسماح بمرور السفن الأمريكية من قناة السويس. التساؤل الآخر يتعلق بما ترتّب على هذه الحرب الكبرى بعد عودة ما يقارب 4 مليون مصري من عملهم في العراق بداية التسعينيات الفائتة دون أن يستردّوا مستحقاتهم (حتى اللحظة). وأخيراً، وكمسألة كبرى أصبحت سريعاً هي لبّ التفاعل والانعكاس الحقيقي لتلك الحرب، فتتعلق بتفجر الطاقة الشعبية والسعي الحثيث نحو التغيير والتخلّص من السلطة الديكتاتورية التابعة للحلف الصهيوأمريكي.

كان العالم كلّه على موعد مع فصلٍ جديد من الفلسفة الأمريكية المتغطرسة: «من ليس معنا، فهو مع الإرهاب»، التي بدأت فور استهداف برجي التجارة في نيويورك، وتجسدت على شكل قنابل وقصف مباشر لأفغانستان.

وتلك ثلاثة ميادين لرصد تأثير الحرب على العراق على مصر وفيها.

## العلاقات الرسمية

لم يأتِ النظام المصري بموقف ذي صوت واضح، تأييداً أو اعتراضاً. كان الأداء باهتاً. انضمت مصر إلى مشروع بيان دوليّ أعدّه الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن، يطالب أمريكا ودول الغرب بالاستمرار في عمليات التفتيش عن «أسلحة الدمار الشامل» داخل العراق بدلاً من اتخاذ قرار باجتياحه. وحين جاء القرار الأمريكي/ البريطاني بالحرب والغزو من غير غطاء أممي، لم يبلور النظام المصري موقفاً.

من ناحيةٍ أخرى، روّجت السلطة المصرية على لسان وزير خارجيتها آنذاك لسلامة وحكمة قرارها بالسماح بمرور السفن الأمريكية عبر قناة السويس، على الرغم من الغضب الشعبي العربي والعالمي والدعوات المنادية لعرقلة ذلك. قال رئيس هيئة قناة السويس: المطالبة بمنع السفن الحربية الامريكية من المرور من قناة السويس هو «فخ لن تقع السلطة المصرية فيه»، مؤكداً التزام الهيئة بالعمل وفق المواثيق والمعاهدات الدولية، وعلى رأسها «اتفاقية القسطنطينية» التي تكفل حق الملاحة الآمن لكافة السفن العابرة دون تمييز بين علم دولة وأخرى[1].

ترك هذا الأداء أثراً كبيراً على السياسة الخارجية المصرية تجاه العديد من القضايا العربية والإقليمية، وعلى رأسها بالتأكيد القضية الفلسطينية. فمنذ ذلك الحين وحتى اندلاع «ثورة يناير»، عادت إلى السطح وبقوة تلك النغمة الإعلامية الرسمية حول «أمن مصر أولاً»، عدم الانزلاق لدعم القضايا العربية على حساب المصلحة الوطنية. استمر ذلك الخطاب إلى حدّ مباركة إغلاق معبر رفح على مدار سنوات أمام أهل غزة منذ وصول حركة «حماس» إلى الحكم فيها، والمشاركة في حصار القطاع حتى خلال القصف

[1] «ممشيش»: المطالبة بمنع السفن الحربية من عبور قناة السويس «فخ لن نقع فيه»، موقع «المصري اليوم»، 02/09/2013.

الإسرائيلي، إلى أن انتهى الأمر بهدم الغزاويين لجزء من جدار ذلك المعبر واجتيازه عام 2009.

**عشرون عاماً مرت على الاجتياح الأمريكي للعراق، عشرون عاماً عاشت فيها مصر موجات متلاطمة بين محاولات التغيير ووأده، عشرون عاماً كان احتلال العراق هو الجرح الذي أوقد النار المصرية التي ترفض ما لحق بالشقيق العربي وتلفظ ما هو جاثم فوق الروح، عشرون عاماً شملت انبلاج «الربيع العربي» ثم أفوله على امتداد الخريطة.**

ظلّ ذاك المنحى الذي أسمته السلطة المصرية «تغليب المصلحة الوطنية» حاكماً، تحاججه أصوات معارِضة باعتباره سياسة قائمة على التبعية والرضوخ للحليف الغربي ستقضي على الأمن القومي المصري مباشرة قبل غيره، وهي النغمة التي خفتت بطبيعة الحال على مدار عامي 2011 و 2012 لكنها سرعان ما عادت لتحكم الخطاب الرسمي/ الشعبي وتصوغه منذ 2013، إلى أن ظهرت مقولة رئيس الجمهورية «مش أحسن من سوريا والعراق» - وهي إحدى المقولات المؤسِّسة حتى اليوم - فتصبح معها تلك الحرب التي تعرض لها العراق قبل عشرين عاماً وما نتج عنها، هي فزّاعة أولى ورئيسية تستخدمها السلطة السياسية داخل مصر لتسييد منطق الأمن في ظلّ حكم سلطوي.

## المعضلة الاقتصادية

لم تكن هناك علاقات اقتصادية مصرية ـ عراقية قائمة خلال سنوات الحصار الأمريكي على العراق منذ بداية التسعينيات الفائتة، إلا أنه يمكن القول أن أجواء الحرب فور وقوعها قد انعكست على الاقتصاد المصري بشكل غير مباشر عبر مسارين، وأنّ هذا الأثر، كما سواه، كان ممتداً.

**تفاقمت الأزمة الاقتصادية المتعلّقة بخسارة مصدر رئيسي من تحويلات المصريين من الخارج التي هي على رأس مصادر الدولة المصرية في العملة الصعبة، وضياع الحقوق المالية للمصريين العائدين من العراق منذ بداية التسعينيات الفائتة. وكانوا ما يقارب 4 ملايين مصري حتى بداية التسعينيات من القرن العشرين. وقد استمرت المطالبات والوعود بصرف تلك المستحقات.**

أوّل المسارين هو تفاقم الأزمة الاقتصادية المتعلّقة بخسارة مصدر رئيسي من تحويلات المصريين من الخارج التي هي على رأس مصادر الدولة المصرية في العملة الصعبة، وضياع الحقوق المالية للمصريين العائدين من العراق منذ بداية التسعينيات الفائتة. فوفق تقديرات متوافق عليها إلى حدّ بعيد، ضمّ العراق ما يقارب 4 مليون عامل/ موظف/ مستثمر مصري حتى بداية التسعينيات من القرن العشرين. وقد استمرت المطالبات والوعود بصرف تلك المستحقات. وفي العام 2010 أنشئت لجان مصرية ـ عراقية مشتركة لتقييم المستحقات في ضوء أصولها والفوائد المتراكمة، ليتم تقديرها آنذاك بما يزيد عن 60 مليون دولار[2].

لم يفقد الاقتصاد المصري تحويلات العاملين في العراق فحسب، ولكن العلاقات التجاريّة بين البلدين تخبطت وتعثر ما بينهما من شراكات. فقد بلغ حجم التبادل التجاريّ بين العراق ومصر خلال الفترة 1997-2001

[2] *Egyptians receive a third of deferred Iraqi transfers: Central bank*, ahramonline, 08/04/2012.

ما يقارب 1402 مليون دولار، وذلك على الرغم من الحصار الأمريكي، وهو ما يُحسب بالتأكيد للسلطة المصرية آنذاك. وفي العام 2001، شرع الطرفان في توقيع بروتوكول يقضي بتحرير كافة السلع المتبادَلة ذات المنشأ الوطني في كلا البلدين من القيود الجمركية وغير الجمركية المفروضة عليها.

وتشير البيانات الرسمية إلى أن منحنى التبادلات التجارية قد عاد إلى الارتفاع بعد ذلك بسنوات قليلة، وهو ما يُظهر خساراتها خلال الفترة المأزومة السابقة: ففي الفترة 2005 - 2008، شهد ذلك التبادل اتجاهاً تصاعدياً بمعدل نمو سنوي بلغ 77 في المئة، كما أنّ إجمالي التبادل التجاري في عام 2009 وحده قد بلغ 370 مليون دولار. وقد شرعت الدولة المصرية منذ عام 2021 في عقد شراكات اقتصادية وتنمويّة جديدة بعد قمة ثلاثية في بغداد ضمت رؤوس السلطة في العراق ومصر والأردن.

**عادت إلى السطح النغمة الإعلامية الرسمية حول «أمن مصر أولاً»، وعدم الانزلاق لدعم القضايا العربية على حساب المصلحة الوطنية. استمر ذلك الخطاب إلى حدّ مباركة إغلاق «معبر رفح» على مدار سنوات أمام أهل غزة منذ وصول حركة «حماس» إلى الحكم فيها، والمشاركة في حصار القطاع حتى خلال القصف الإسرائيلي له...**

من جانب آخر، أدّى الموقف السياسي الرسمي منخفض الصوت للسلطة المصريّة واستمرارها كحليف استراتيجي للقطب الأمريكي قبل اندلاع تلك الحرب في 2003 وبعدها، إلى تنامي الشراكات الاقتصادية مع «الحليف». وكانت اتفاقية «كويز» هي الثمرة الرئيسية بالنسبة للمتعطشين للربح في السوق المصري، وهو بروتوكول تم توقيعه في شباط/ فبراير 2005، ويُسمح بمقتضاه للشركات المصرية بالتصدير إلى السوق الأمريكية دون جمارك، بشرط وجود نسبة مكوِّن إسرائيلي تصل إلى 35 في المئة من المنتَج، وفق تقرير مختصّ صادر عن «البنك الدولي». ومع بدء تنفيذ الاتفاقية، ارتفعت القيمة الإجمالية لصادرات المنسوجات والملابس من مصانع المناطق الصناعية المصرية المؤهلة من حوالي 500 مليون دولار عام 2006 إلى 900 مليون دولار في عام 2011، أي بزيادة مقدارها 45 في المئة. ومنذ ذلك الحين، لم يحدث مزيد من النمو في صادرات المناطق الصناعية المؤهلة، وظل المستوى مستقراً أو شابَه الجمود بعد ضغوط حكومية مصرية عام 2012 لتخفيض المكوِّن الاسرائيلي إلى 10 في المئة.

## الصحوة الشعبية

ولعلّ تلك هي السيرورة الأبرز لنتائج تلك الحرب على مصر. فمنذ توقيع «إتفاقية السلام» بين مصر وإسرائيل عام 1979 وتزايد القبضة الأمنية في مصر وحظر التعامل مع ملف التداول السلمي للسلطة، تعاظَم حضور القوى السياسية الشعبية في ساحات مقاومة كافة أشكال التطبيع ودعم وتأييد المقاومة الفلسطينية ورفض أي اعتداء صهيوني على المنطقة العربية. جولات عدّة قادها الجيل الذي خرج إلى عالم السياسة من داخل أسوار الجامعات المصرية عقب هزيمة حزيران/ يونيو 1967. توالت «اللجان الشعبية» التي قامت بنشاط سياسي واجتماعي وثقافي وإعلامي، إلا أنّ النزول إلى الشارع والتظاهر ظلّا خطاً أحمر محظوراً قد تتمكن تلك المجموعات المعارضة من اختراقه بين الحين والآخر، في هذا المحفل أو ذلك، أمام أبواب الجامعات أو داخل معارض الكتب، وتدفع مقابل ذلك ثمناً باهظاً. وفي طفرات محدودة استطاعت بعض قيادات تلك المعارضة من برلمانيين وفنانين تشكيل وفود إلى العراق أو غزة تحت مسمى «فك الحصار». ففي كانون الأول/ديسمبر 1998، توجّه وفد مصري مكون من عدد من البرلمانيين والمثقفين

والفنانين لإعلان التضامن مع الشعب العراقي ضد ما يتعرض له نتيجة الحصار الاقتصادي الدولي، وفي العام 2009 توجه وفد مماثل بعد انتهاء حرب «الرصاص المصبوب» على غزة لإعلان تضامن الشعب المصري مع القطاع ورفض مشاركة النظام المصري في حصار أهله عبر إغلاق معبر رفح.

**ظهرت مقولة رئيس الجمهورية «مش أحسن من سوريا والعراق» - وهي إحدى المقولات المؤسِّسة حتى اليوم - فتصبح معها تلك الحرب التي تعرض لها العراق قبل عشرين عاماً وما نتج عنها، هي فزّاعة أولى ورئيسية تستخدمها السلطة السياسية داخل مصر لتسييد منطق الأمن في ظلّ حكم سلطوي.**

نجحت الوفود في حمل تلك الرسائل والتعبير عن موقف الشعب المصري، بينما ظلت الميادين العامة وعلى رأسها «ميدان التحرير» محظورة على الناس، منذ الانتفاضة الشعبية المبتورة التي انطلقت يومي 18و19 كانون الثاني/يناير عام 1977 والمعروفة سياسياً باسم «مظاهرات الخبز والحرية» بينما أطلق عليها رأس النظام آنذاك «انتفاضة الحرامية».

وكان الشعب المصري، وفي القلب منه الكتل السياسية والثقافية، يتابع التطورات السريعة للاستهداف الأمريكي لأفغانستان تحت لافتة محاربة الإرهاب، والاستعدادات الحثيثة على مستوى المحافل السياسية الدولية للترويج لخطوة الغزو الأمريكي للعراق.

**أدّى الموقف السياسي الرسمي منخفض الصوت للسلطة المصرية واستمرارها كحليف استراتيجي للقطب الأمريكي قبل اندلاع تلك الحرب في 2003 وبعدها، إلى تنامي الشراكات الاقتصادية مع «الحليف». وكانت اتفاقية «كويز» هي الثمرة الرئيسية، ووُقِّع البروتوكول في شباط/ فبراير 2005، ويُسمح بمقتضاه للشركات المصرية بالتصدير إلى السوق الأمريكية دون جمارك، بشرط وجود نسبة مكوِّن إسرائيلي تصل إلى 35 في المئة من المنتَج.**

كان المشهد داخل مصر موجعاً حين تردد صدى الدعوة العالمية للتظاهر يوم 15 شباط/ فبراير 2003 ضدّ صدور قرار دولي يمنح أمريكا مسوغات لاحتلال العراق، وهي الدعوة التي أطلقتها الحركات والروابط التضامنيّة المناهضة للعولمة والإمبريالية. وقد خرجت المظاهرات الكثيفة في ذلك اليوم في ستين عاصمة على مستوى العالم وبمشاركة ما يقارب 16 مليون متظاهر. وحاولت بعض رموز المعارضة تنظيم فعالية مشابهة في مصر وفي التوقيت نفسه وفشلت... وانتهى الأمر بتقدم نقيب الأطباء آنذاك بطلب رسمي لوزارة الداخلية المصرية بالتصريح بفتح استاد القاهرة في ذلك اليوم أمام الشعب للتعبير عن رفضه لتلك الخطوة، وهو طلب جرى تجاهله بطبيعة الحال.

بدا الأمر وكأن كل تلك الطاقات الغاضبة وخبرات المعارضة واقعة تحت السيطرة الأمنية ولا يمكنها الشب عن الطوق. ثم جاء يوم 20 آذار/ مارس 2003 حين استيقظ العالم على صور القنابل الفسفورية تضيء الظلام قبيل الفجر فوق أراضي العراق. بشكلٍ شبه عفوي (ويستحق الدراسة)، سارعت تلك المجموعات المصرية المعارضة إلى التواصل مع بعضها البعض والتوافد إلى ميدان التحرير رأساً. ولأنّ رد الفعل العفوي لم يكن على خارطة العقل الأمني، فقد سمح هذا بتوافد المئات إلى ميدان التحرير، كان الأغلب منهم هو جمهور النشطاء والفاعلين السياسيين، ورموز وقيادات شعبية وشباب، وقد كان للقطاع الأخير الحضور الأكبر بعد تشكّل جيل جديد للقيادة داخل الجامعات المصرية مع اندلاع انتفاضة الأقصى داخل الأراضي الفلسطينية نهاية عام 2000.

وصلت تلك المجموعات، على تنوعها السياسي/ الجندري/العمري، إلى قلب ميدان التحرير ظهيرة 20 آذار/ مارس 2003. وكان العنوان الرئيسي هو رفض الاجتياح الأمريكي للعراق، لكن لبّ الغضب كان منصباً على ما يدور على الأرض التي تحملهم، فكانت الهتافات تقول «اللي بيضرب في العراق.. بكرة هايضرب في الورّاق» (وهو حي في قلب القاهرة)، «اللي باعوا العهد منا واستباحوا كل حاجة.. واستهانوا بالعروبة واستكانوا للخواجة.. همّ حاجة وإحنا حاجة». كان يوماً قد جمع بين مشاعر الغضب والاحتفاء، يوماً شهد رفض القرار الأمريكي والاحتفاء بالعفوية الشعبية المصرية التي وصلت إلى قلب الميدان.

**استيقظ العالم يوم 20 آذار/ مارس 2003 على صور القنابل الفسفورية تضيء الظلام قبيل الفجر فوق أراضي العراق. بشكلٍ شبه عفوي (ويستحق الدراسة)، سارعت تلك المجموعات المصرية المعارضة إلى التواصل مع بعضها البعض والتوافد إلى ميدان التحرير رأساً. ولأنّ رد الفعل العفوي لم يكن على خارطة العقل الأمني، فقد سمح هذا بتوافد المئات إلى ميدان التحرير.**

بطبيعة الحال لم تمرّ سوى ساعات قليلة حتى كانت الكلمة العليا للقوة الأمنية. لكن وعلى الرغم من هذا، تشكلت ملامح إبداعية جديدة للّحظة. انخرطت المجموعات التي فُرّقت في الزوايا وبوابات النقابات، واستمرت على مدار يومين المظاهرات المحدودة أمام مقر الحزب الحاكم والبرلمان بأعداد لا تتخطى عشرات المعارضين. قامت قوات الأمن بالقبض على العشرات والاعتداء عليهم بالضرب المبرح، من بينهم حمدين صباحي، النائب البرلماني آنذاك والمرشح الرئاسي بعد ذلك. كانت قبضة أمنية واسعة لم تتوقف عند القبض العشوائي من الشوارع بل امتدت لتصل إلى البيوت. انطلق زوّار الفجر يقبضون في الأيام التالية على كل من يرون فيه قيادة شعبية يمكنها تكرار الدعوة والحشد مرة أخرى، بينما مشاهد الحرب والاجتياح تتصاعد على الشاشات.

سقطت بغداد يوم 9 نيسان/ إبريل 2003، وتمكّن الطلاب وحدهم من الاعتراض داخل أسوار جامعتهم، لكن رياح التغيير كانت قد انطلقت. فوران ثوري غزا العروق المتعطشة للتعبير، وكانت الزنازين والاجتماعات السرية بعيداً عن أعين قوات الأمن فرصة لإنضاج النقاشات.

وفي الوقت نفسه تضافر البعد الحقوقي مع السياسي، فتحركت دعوى قضائية ضد الحكومة المصرية تطالب بمنع مرور السفن الأمريكية عبر قناة السويس، وتدعوها إلى عدم التخفي وراء اتفاقات دولية تطالبها بالحيادية بين أطراف النزاع، وذلك انطلاقاً من كون الأمن القومي المصري واقتصاد البلاد يتعرضان للخطر جراء تلك الحرب، وهو ما يتيح لمصر قانونياً رفض ذاك المرور[3].

على الجانب الآخر وعبر المؤتمرات الصحافية ومن أشهرها كلمة وزيرة الخارجية كونداليزا رايس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حاولت وجوه عدّة في الإدارة الأمريكية استكمال حملتها لتبرير الاجتياح عبر مهاجمة الأنظمة الديكتاتورية في المنطقة، والقول أنه لم يعد من المقبول الاستمرار بعلاقات وطيدة مع تلك الأنظمة للحفاظ على استقرار المصالح الأمريكية بينما تؤدي تلك الأجواء غير الديمقراطية إلى تشكل جماعات إرهابية تتوجه بغضبها نحو الغرب. تردد ذلك كثيراً كزعم عن كونه السبب الحقيقي وراء تفجير أبراج التجارة العالمية في نيويورك في 11 أيلول/ سبتمبر 2001[4].

[3] منى سليم، «أعوام السلام الدافئ مع إسرائيل والأثر الاقتصادي: مصر مثالاً»، موقع «السفير العربي»، 12/05/2022.

[4] Secretary Condoleezza Rice, *Remarks at the American University in Cairo*, U.S Department of State Archive, 20/06/2005.

## ميلاد من رحم الصدمة

وفق ما يليق بلحظات التفاعل الكبرى، دار الجدل داخل الأوساط السياسية الشعبية المصرية المعارضة على اختلافها حول كيفية استثمار تلك اللحظة والتعامل معها، بين رفض للسياسات الأمريكية تجاه العالم ككل، وبين الحاجة لاستكمال طريق التصعيد ضد السياسات السلطوية المصرية والتبعية كما تتجلى محلياً. ومن رحم هذا الجدل خرجت للحياة «حركة كفاية» المصرية في أيلول/سبتمبر 2004 بتوقيع 300 سياسيّ ومثقف مصري رافعين شعار «لا للتمديد.. لا للتوريث»، مطالبين بتنحي رأس النظام عن السلطة. وقد جاء ذلك بالتوازي مع أمرين، الأول هو ما رأوه من استعدادات شكليّة من جانب النظام لإحداث بعض التغيير السياسي استجابة للضغط الأمريكي، وبين ما يتم الترتيب له سياسياً واقتصادياً وبدأت آثاره في البزوغ لتكشف عن دور قادم لأسرة مبارك في حكم مصر والسيطرة على اقتصادها[5]. فمن ناحية، قامت السلطة بالفعل بطرح استفتاء شعبي على تعديل دستوري يسمح بأن يكون انتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الاقتراع السري العام المباشر من جميع أفراد الشعب الذين لهم حق الانتخاب، بدلاً من اختيار رئيس الجمهورية عن طريق الاستفتاء، بعد ترشيح مجلس الشعب لشخص واحد للرئاسة. إلا أنه ومن ناحية أخرى بدأت الترتيبات داخل الحزب الحاكم («الحزب الوطني») من أجل سيطرة الابن الأصغر للرئيس بمساعدة عدد من رجال الأعمال على الوزارات ووضع رؤية اقتصادية وسياسية جديدة استعداداً لترشيحه كما اتضح للجميع آنذاك.

> **كانت الهتافات تقول «اللي بيضرب في العراق.. بكرة هايضرب في الورّاق» (وهو حي في قلب القاهرة)، «اللي باعوا العهد منا واستباحوا كل حاجة.. واستهانوا بالعروبة واستكانوا للخواجة.. همّ حاجة وإحنا حاجة». كان يوماً قد جمع بين مشاعر الغضب والاحتفاء، يوماً شهد رفض القرار الأمريكي والاحتفاء بالعفوية الشعبية المصرية التي وصلت إلى قلب الميدان.**

كان الاجتياح الأمريكي للعراق هو اللحظة التي هيّأت الفرصة. أجيال وجماعات من المعارضة، توالى تكونها ككرة الثلج، وكل موجة تفيض إلى ما بعدها. تشكلت «حركة كفاية» ومن رحمها خرجت مجموعات عدّة من أهمها وأكثرها تأثيراً «شباب من أجل التغيير» التي كان لها الحضور الأكبر في رفع صوت المعارضة ضد إجراءات الاستفتاء الشعبي على تعديلات دستورية رأوها صورية، ثم جولة الانتخابات الرئاسية عام 2005 التي شملت وقائع تزوير واسعة وانتهت بالقبض على المرشح الرئاسي «أيمن نور».

كما تكوّنت حركة عمّالية احتجاجية واسعة اتخذت من رصيف البرلمان مقراً لها. ثم كانت موجة الاحتجاج الأوسع يوم 6 نيسان/ أبريل 2008 حين دعت قوى المعارضة إلى إضراب عام فجاءت الصيحة على يد عمال مدينة «غزل المحلة» الشهيرة بصناعة النسيج، ومنها إلى تكوّن «الجمعية الوطنية للتغيير» والدعوة إلى عودة السياسي المصري «محمد البرادعي» من الخارج وترشّحه للرئاسة. وأخيراً كانت الوقفات الاحتجاجية الشبابية ضد التعذيب في أقسام الشرطة عام 2010 تحت عنوان «كلنا خالد سعيد».

تلك كانت موجات عدّة ومؤثرة، انطلقت من نزول المئات إلى ميدان التحرير غضباً من الاجتياح الأمريكي للعراق في آذار/ مارس 2003 ليعودوا بالملايين في يوم «جمعة الغضب» في 28 نيسان/ أبريل 2011، في خطٍّ متّصل، مطالبين بإسقاط النظام. هذا الميدان الذي من لحظة أن تمكّن الشعب منه لم تغب عنه أعلام

[5] Who's *isolating whom?*, The Economist, 23/02/2006.

فلسطين والعراق، مع ترديد الهتافات ضد التحالف الصهيوالإمبريالي بمقدار ترديدها ضد النظم السلطوية المحلية.

> **«يحكى أنّ.. أنّ إيه.. سرقوا بلادنا ولاد الإيه.. يحكى أنّ كان يا ما كان.. سرقوا بلادنا الأمريكان.. يحكى أنّ جيل ورا جيل سرقوا فلسطين إسرائيل.. راح يدخلوا بغداد العصر، والمغرب راح يدخلوا مصر». تلك الأغنية التي أطلقت في 2003، أعيد غناؤها في قلب ميادين الثورة في كانون الثاني/ يناير 2011.**

مشهد ممتدّ قد انطلق من ميدان التحرير وعاد إليه. وكان مشهداً عربياً بامتياز وليس فقط مصرياً، يحكي المعضلة التي تعيشها الشعوب في منطقتنا. المشهد ترجمته بوضوح مبْهر أغنية «يُحكى أنّ» لفرقة «إسكندريلا» التي تنتمي إلى الجيل الشبابي الذي انطلق آنذاك. ففي 2003 غنوا على خلفية الاحتلال الأمريكي للعراق، فقالوا:

«يحكى أنّ.. أنّ إيه.. سرقوا بلادنا ولاد الإيه.. يحكى أنّ كان يا ما كان.. سرقوا بلادنا الأمريكان.. يحكى أنّ جيل ورا جيل سرقوا فلسطين إسرائيل.. راح يدخلوا بغداد العصر، والمغرب راح يدخلوا مصر».

تلك الأغنية أعيد غناؤها في قلب ميادين الثورة في كانون الثاني/ يناير 2011 ، وقد أضيفت إليها فقرة جديدة بنكهة الربيع العربي، تقول :

«يحكى أنّ.. أنّ إيه.. شعبنا مسك النور بإيديه.. يحكي أنّ كان يا ما كان.. الى اراده شعبنا كان.. يحكي أن.. جيل ورا جيل.. مصر اتولدت في التحرير.. يحكي أنّ يا ابناء.. شمس الثورة من الشهداء.. يحكي أنّ يا حرية.. ثورتنا ثورة عربية.. فجر وصبح وظهر وعصر.. تونس ليبيا سوريا مصر».

***

في ضوء كل ما سبق، وللتكثيف، يمكن القول:

عشرون عاماً قد مرّت على الاجتياح الأمريكي للعراق، عشرون عاماً عاشت فيها مصر موجات متلاطمة بين محاولات التغيير ووأده، عشرون عاماً كان احتلال العراق هو الجرح الذي أوقد النار المصرية التي ترفض ما لحق بالشقيق العربي وتلفظ ما هو جاثم فوق الروح، عشرون عاماً شملت انبلاج «الربيع العربي» ثم أفوله على امتداد الخريطة، لينتهي الأمر داخل مصر بهذا المشهد الغريب، حيث يأتي رئيس جمهورية بصفة عسكرية من داخل خزائن الدولة العميقة التي ثار عليها الشعب المصري، لكي يحذّر من مغبة الانجرار وراء حلم/ وهم التغيير الذي قد يسحب البلاد نحو مصير العراق، وكأن العراق الذي عاش أهله على مدار عشرين عاماً مآسي مهلكة لا زال قادراً ـ ولو بصورة عكسيّة ـ أن يكون مصدر الضوء، فيشير عبر مصيره الصعب إلى أين يجب توجيه البوصلة داخل مصر.

الجزائر

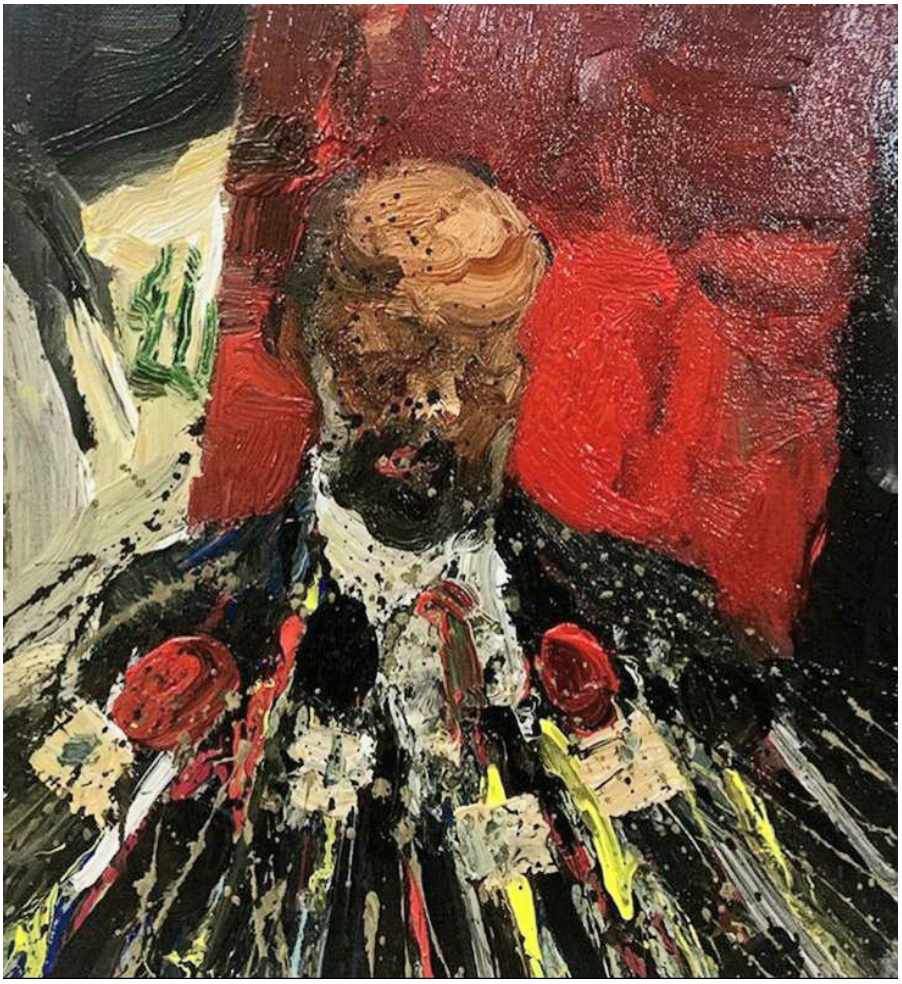

سيروان باران - العراق.

# عشرون عاماً بعد الغزو: الدروس المستخلَصة من المأساة العراقيّة


عمر بن درة

خبير إقتصادي من الجزائر، عضو في Algeria Watch

ترجمه عن الفرنسية: محمد رامي عبد المولى


منْع نظام صدام حسين لأي صوت معارض حَرَم المجتمع العراقي من النقاش حول الخيارات الاستراتيجية الأساسية للبلاد. لقد شكّل الاستبداد السبب الأول في إضعاف المجتمعات التي صارت عاجزة عن الدفاع عن نفسها. وفي المنطقة المغاربية، وبالأخص في الجزائر، أُغلق الجدل حول موضوع فرض «الديمقراطية» بقوة الجيوش الاجنبية مع تدمير ليبيا في 2011، والذي تقع أيضاً مسؤوليته على عاتق القيادات السياسية للبلاد.

الصورة لا يمكن محوَها من الذاكرة. في تلك الليلة الربيعية، هزّت انفجارات هائلة مدينة نائمة. كانت الطائرات الحربية الأمريكية تنفذ المرحلة الأولى من غزو العراق عبر قصف لم يسبق لعنفه مثيل للعاصمة الأكثر شهرة ورمزية في الحضارة العربية - الإسلامية. هذا الاستعراض الناري الحارق الذي نقلته بشكل حي CNN الأمريكية وقناة «الجزيرة» القطرية ذات نسب المشاهدة العالية في الجزائر، ذكّرنا مباشرة بالمجزرة المريعة التي استهدفت ملجأ العامرية سنة 1991 خلال حرب الخليج الأولى. حسب العقل المريض لأشباه المخططين الاستراتيجيين من المحافظين الجدد الأمريكيين، كان ينبغي لهذا السيل الجهنمي من العنف ان يثير «الصدمة والذهول» لدى السكان المسحوقين تحت القنابل، ويفترض به كذلك أن يسرّع خضوعهم عبر القبول غير المشروط بالتفوق الإمبريالي. في اللحظة ذاتها نُسِف النظام القانوني الدولي الذي أرسيت قواعده عقب الحرب العالمية الثانية.

## من العراق إلى الجزائر: بعد جغرافي وقرب تاريخي

لم يباغَت الجزائريون باعتداء أعلنت عنه الولايات المتحدة وحلفاؤها بشكل متكرّر وصاخب. كانت الرسالة السياسية التي يحملها هذا الهجوم الموغل في الوحشية واضحة لا لبس فيها. القصف المكثف والعشوائي للسكان وتدمير البنى التحتية المدنية في إطار السعي المعلن لإسقاط النظام البعثي، كان إنذاراً بالغ الوضوح إلى كل واحد في كوكب الأرض تسوِّل له نفسه الاعتراض على الهيمنة الأمريكية، وفي المقام الأول دول «جبهة الرفض» ومن خلالها الشعوب العربية - الإسلامية المتضامنة مع الشعب الفلسطيني.

ما تزال الصدمة حاضرة في الجزائر، حتى بعد مضي 20 عاماً. لم ينسَ أيّ واحد ممّن شهدوا هذا الحدث المأساوي الافتتاح المرعب والمستند على كذبة مفضوحة، لفصل جديد في المأساة العراقية التي لا تنتهي.

> **يبقى خط الدفاع الأول أمام أي خطر خارجي - وهذا ما تبرهن عليه التجربة العراقية المأساوية منذ أكثر من 20 عاماً - وحدة الشعب وقادة البلاد. من الضروري إذاً، في العراق كما في الجزائر وفي كل أرجاء العالم العربي المأزوم بشكل دائم، التوصل إلى إعادة تأسيس نظام سياسي يحظى بقبول الأغلبية، وذلك عبر انفتاح الأنظمة على الحريات الأساسية ودولة القانون.**

حملة الدعاية الغربية المكثفة والقائمة على التلاعب والتضليل لم تخدع إلا الذين أرادوا أن ينخدعوا، فالعراق الّذي لم يتورّط بأي شكل من الأشكال في عمليات 11 أيلول/سبتمبر 2001 لم يكن يمتلك أسلحة دمار شامل. مثل بقية الرأي العام العربي، تابع الجزائريون بانتباه شديد تتالي التطورات الدموية والمجازر وتدمير بلد كان مهداً للحضارات. هذا البلد وإنْ كان جغرافياً بعيداً فإنّه قريب من قلوب الجزائريين: لم ينسَ أي أحد في الجزائر الدعم متعدد الأشكال وغير المشروط الذي قدمه الشعب العراقي لحركة التحرر الوطني الجزائري، واستقبال الكليات والأكاديميات العسكرية العراقية لطلبة جزائريين في أوج الحرب المناهضة للاستعمار. وكثيرٌ من العراقيين توافدوا على الجزائر في السنوات الأولى التي تلت الاستقلال للعمل كمبتعثين متعاونين في قطاعات مختلفة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية الجزائرية.

حتى أنّ بعضهم استقرّ في الجزائر مع الحفاظ على روابط مع بلدهم الأم. ومما سهّل الأمر أن الشعبين اللذين يعيشان الطرفين المتقابلين للقوس العربي - الإسلامي يتشاركان عدة سمات اجتماعية وثقافية. وفي الواقع، فوراء خشونة ظاهرية في الطباع، يصعب على الجزائريين كما على العراقيين أن يخفوا كرماً حقيقياً.

## الجزائريون ومسار النكبة العراقية

على المستوى السياسي، وإنْ كان التضامن غير المشروط مع الشعب العراقي جليّاً والتعاطف ملموساً، فإن الرأي العام الجزائري منتقد لنظام صدام حسين. هناك إحساس تتشاركه قطاعات واسعة من الجزائريين بأنّ الديكتاتورية البعثية الوحشية والعمياء تتحمل مسؤولية ثقيلة في المأساة التي يعانيها شعب بلاد ما بين النهرين. هذه الإدارة السياسية هي التي سمحت، بسبب قصر نظرها السياسي واحتقارها للشعب، بإضعاف البلاد إلى حدّ أباح تدميرها. هذا الشعور الشعبي المختلَط تتشاركه أيضاً السلطات الجزائرية التي لم تنسَ كيف وضع صدام حسين بنفسه بلده في مسار كارثي إثر تمزيقه «إتفاقية الجزائر» الموقعة في آذار/مارس 1975[1]. حظيت الاتفاقيات التاريخية التي توصل إليها شاه إيران رضا بهلوي وصدام حسين - الذي كان حينها نائب الرئيس لكنه الرجل الأقوى في النظام - برعاية الرئيس بومدين[2]، باعتراف النظام الذي اعتلى سدة الحكم في طهران بعد ثورة 1979. ولقي التحوّل المفاجئ في موقف النظام العراقي، والذي تمّ تبريره بالتهديد الذي يمثله النظام الإسلامي الجديد، وتغير اتجاه تحالفاته لصالح الملكيات الخليجية بعد أن كان أحد محركات المعارضة العربية للتخلي عن القضية الفلسطينية، تشجيعاً خبيثاً من الغربيين الذين كانوا أكثر من راضين بضربهم عصفورين بحجر واحد.

> **المأساة العراقية هي أيضا مأساة كل الامتداد العربي - الإسلامي، من الخليج إلى المحيط الأطلسي. بعد عقدين من تدمير دولته، ما يزال غياب العراق عن محفل الأمم محسوساً بقوة في مجتمعات العالم العربي. سيسترد هذا البلد ذو الثقافة الهائلة والحكمة الموغلة في القدم استقلاله وينهض من جديد.**

مثلت المراحل التاريخية التالية ابتداء من الإفلاس الاقتصادي، ومروراً بضم الكويت للعراق في 1990 وانكسار الجيش العراقي في مواجهة تحالف تقوده الولايات المتحدة في 1991، ووصولاً إلى الذروة مع التدخل العسكري الأمريكي في 2003، التسلسل المنطقي والتدميري للأحداث المتأتية من الخطأ الاستراتيجي الرهيب المتمثل في شنّ الحرب على إيران في أيلول/سبتمبر 1980.

في كلّ واحدة من هذه المراحل، بذلت الديبلوماسية الجزائرية كل ما في وسعها لتهدئة الاندفاع الغربي نحو الحرب وحث القادة العراقيين على التعقل عبر تنبيههم إلى المخاطر الكبرى المحتملة. في هذا السياق اصطدمت الجهود المتواصلة التي بذلها الرئيس الشاذلي بن جديد في ربيع 1990 لإيجاد تسوية سياسية لمغامرة صدام حسين في الكويت برفض قاطع من قبل العراقيين. قبل ذلك، وفي أوج الحرب العراقية-الإيرانية انتهت المساعي الحثيثة التي قام بها وزير الشؤون الخارجية محمد الصديق بن يحي لدفع طرفي الصراع إلى طاولة المفاوضات بمقتله في أيار/مايو 1982.

في 2003 لم يكن صوت الجزائر مسموعاً كما كان في السابق، ولم يعد وازناً في الساحة الدولية نظراً لغرق البلاد منذ تسعينيات القرن الفائت في «حرب قذرة» ضد المدنيين أضعفتها بشدة ولطخت بشكل بالغ سمعة نظام لا يعرف حلاً غير القمع. لكن كل هذا لم يمنع الجزائريين المصدومين من العدوان الأمريكي-البريطاني من إجبار قادة البلاد على الترخيص لمظاهرات التضامن خارج العاصمة الجزائرية. ندّد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة[3] بغزو العراق، مستعملاً مصطلحات يمكن أن توصف بالمحسوبة. لكن استقبال

[1] اتفاقيات لتسوية الخلافات الحدودية والسياسية مع إيران.

[2] ووزيره للشؤون الخارجية آنذاك عبد العزيز بوتفليقة الذي سيتولى فيما بعد رئاسة الجزائر ما بين 1999 و2019.

[3] Algeria-Watch, *La guerre contre l'Irak défie la légalité internationale,* Algeria-Watch,13/12/2009.

الأبطال الذي حظي به الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» خلال زيارته للجزائر في آذار/مارس 2003 بعد الرفض الفرنسي للمشاركة في الغزو - الذي عبر عنه ببلاغة الوزير «دومينيك دو فيلبان» في 14 اذار/مارس- عبّر عن الشعور الشعبي بشكل واضح لا لبس فيه.

## «سياسة البوارج»: فرّق تسد

بلا شك، افتتح التدخل الامبريالي في العراق سنة 2003 من غير تفويض أممي عصراً جديداً في العلاقات الدولية. استرجعت «ديبلوماسية البوارج»[4] - وهي إحدى أدوات التوسع الاستعماري الغربي التي اعتقد كثيرون أنّ زمنها قد ولّى منذ موجة استقلال المستعمرات الأوروبية والهزائم الأمريكية في جنوب شرق آسيا خلال ستينيات وسبعينيات القرن الفائت - كامل وظيفتها وفاعليتها كأداة نفوذ. منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في 1990، لم تعد الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة تتردد في اللجوء إلى الحرب عندما تقدّر أنّ الظروف الاستراتيجية مؤاتية. ثبتت هذه النزعة الحربية المتجددة في يوغسلافيا السابقة سنة 1999 قبل غزو العراق حتى، وفي أفغانستان سنة 2001، وتأكدت أكثر في ليبيا سنة 2011.

**بالنسبة للجزائر فإنّ الاستنتاجات السياسية والأمنية من الحرب على العراق في 2003 كانت بسيطة: إذا أردت السلم فيجب أن تجهِّز نفسك للحرب. وهكذا استمرت جهود تحديث الجيش الجزائري التي بدأت بعد الغزو. ولكن لا يبدو أنّه تمّ استخلاص كل الدروس من هذه الحرب. فلم تقترن جهود تطبيق سياسة دفاعية رادعة بانفتاح سياسي. لم يتراجع النظام قيد أنملة فيما يتعلق بالقمع السياسي.**

أصبح التقدم المحرَز في القانون الدولي الوضعي القائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية محل تشكيك عبر صياغة مسوغات أيديولوجية من نوع «حق التدخل الإنساني» و«واجب المساعدة» المزعوم وغيرهما من عتاد الحرب الإعلامية والسيكولوجية. سعت هذه العناصر الاتصالية، المقدّمة في شكل «بسيكودرامي»، وبكيفية غير مسبوقة، إلى تكييف الرأي العام الغربي. تسهم التبريرات ذات الطابع الدعائي التي تناقلتها بشكل مكثف أجهزة إعلامية معولمة، في كتم الأصوات الناقدة التي تحتج على تراجع القانون لصالح منطق قائم على موازين القوى ومجرد من أي بعد أخلاقي. حافظت الإدارات المتعاقبة خلال فترة رئاسة «ترامب» على هذا الخط مع بعض الفروقات البسيطة. أما الإدارة التي قادها جو بايدن، فهي من زاوية النظر هذه منخرطة بشدة في المنظور الاستراتيجي الذي أرساه جورج بوش الإبن. اشتهر جو بايدن، المتحمس بشدة للحرب ورئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في 2003، براديكالية خطابه ما بين الشطحات «المسيانية» (الخَلاصية) والحجج الزائفة وصولاً للدعوة إلى تقسيم العراق.

كان المسرح العراقي ولا يزال حقلاً لتطبيق الأساليب الاستعمارية الجديدة في تقسيم المجتمعات على أسس إثنية وطائفية، وتوظيف التصدعات الاجتماعية - السياسية بهدف إضعاف الحركات المقاوِمة للهيمنة وضرب جذورها. عند مستوى التدمير الكليّ لهياكل الدولة، نجد أحد أهم الدروس المستخلصة من تجربة عشرين عاماً من الاحتلال الأمريكي للعراق. تتمحور طريقة العمل الإمبريالية، التي تنهل مباشرة من «تعاليم» الأنثروبولوجيا الاستعمارية، حول تأجيج الصراعات القائمة في المجتمعات المستهدَفة بهدف تجزئة الدول

[4] ملاحظة من المترجم: «سياسة البوارج» أو «ديبلوماسية البوارج» يُقصد بها استعراض القوة العسكرية من قبل الدول الاستعمارية لتهديد وإرهاب الدول المراد احتلالها و/أو إخضاعها.

التي تقاوم الهيمنة. مورست هذه المناورة بشكل مكثف في العراق عبر ضرب المسلمين الشيعة بالمسلمين السنة والكرد بالعرب. واستخدمت نفس استراتيجيات التقسيم في أي مكان تتوافر فيه إمكانية تنفيذها كما لاحظنا ذلك في سوريا والسودان أو اليمن. في الجزائر، يسعى أعوان الاستعمار الجديد منذ السنوات الأخيرة من حرب التحرر الوطني إلى خلق صدع بين الجماعات الناطقة بالعربية وتلك الناطقة بالأمازيغية.

**حسب العقل المريض لأشباه المخططين الاستراتيجيين من المحافظين الجدد الأمريكيين، كان ينبغي لهذا السيل الجهنمي من العنف أن يثير «الصدمة والذهول» لدى السكان المسحوقين تحت القنابل، ويفترض به كذلك أن يسرّع خضوعهم عبر القبول غير المشروط بالتفوق الإمبريالي. في اللحظة ذاتها نُسِف النظام القانوني الدولي الذي أرسيت قواعده عقب الحرب العالمية الثانية.**

في 2023 وبعد كل هذه المناورات، صار العراق بلداً يرزح تحت الوصاية الأجنبية، مقطّع الأوصال وخائر القوى. لم تعد الدولة المركزية التي سُلبت منها أغلب مقومات سيادتها تمثّل العمق الاستراتيجي للبلدان المتموقعة في الخط الأول في المواجهة مع إسرائيل. يرى كثيرون أنّ هذا الوضع هو الهدف الفعلي للحرب التي أطلقها الرئيس بوش والمحافظون الجدد الأمريكيون.

## المقاومة: عشرون عاماً بعد الغزو

أبعد من الحرب السيكولوجية وقبل كل شيء، يظهر غزو العراق كاختزال لكل الممارسات الاجرامية التي يقترفها جيش إحتلال. لم يعد الخطاب الأمريكي حول الدفاع عن الحرية ومناهضة الأنظمة الفردية الاستبدادية و«الحرب على الإرهاب العالمي»- حسب تعبير جورج بوش - قادراً على إخفاء حجم الأعمال الإجرامية الخالصة التي تقع على طرف نقيض من أي دفاع عن الديمقراطية والسلام.

**العراق، وإنْ كان جغرافياً بعيداً فإنه قريب من قلوب الجزائريين: لم ينسَ أي أحد في الجزائر الدعم متعدّد الأشكال وغير المشروط الذي قدمه الشعب العراقي لحركة التحرر الوطني الجزائري، واستقبال الكليات والأكاديميات العسكرية العراقية لطلبة جزائريين في أوج الحرب المناهضة للاستعمار.**

مليون قتيل ومئات آلاف الجرحى والحيوات المدمرة بالإضافة إلى انتهاكات حقوق الانسان التي لا تحصى ولا تعّد، والنهب العلني للإرث التاريخي العراقي.. كلّها تداعيات تتحمل القيادات العسكرية الأمريكية مسؤوليتها المباشرة. وضمن قائمة الجرائم الامريكية نجد أيضاً تدمير البنى التحتية المدنية والنيل من الرموز الدينية. الإخراج المهين لعملية شنق صدام حسين يوم 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2006 الموافق لعيد الأضحى، والذي حظي بتغطية إعلامية واسعة وخبيثة، أثار استهجان حتى أولئك الّذين لا يكنون أي تعاطف للديكتاتور المخلوع، ولكنهم اعتبروا ما حصل إهانة للإسلام.

وفي موكب جرائمه التي لا تسقط بالتقادم، قرع الاحتلال جرس نهاية وهم فرض الديمقراطية بقوة الجيوش الأجنبية. في المنطقة المغاربية، بالأخص في الجزائر، أغلق الجدل حول هذا الموضوع مع تدمير ليبيا في 2011. الشعور المهيمن بشدة يعتبر أن مسؤولية هذه النكبة تقع أيضاً على عاتق القيادات السياسية للبلاد. هناك إجماع شبه كامل على هذه المعاينة: منع نظام صدام حسين لأي صوت معارض حرم

المجتمع العراقي من نقاشات لا غنى عنها حول الخيارات الاستراتيجية الأساسية للبلاد. عبر إصراره على احتكار امتلاك الحقيقة السياسية، شكّل الاستبداد السبب الأول في إضعاف المجتمعات التي صارت عاجزة عن الدفاع عن نفسها.

## دروس حرب 2003

أبعد من هذه الملاحظة التي يفرضها الحسّ السليم، ما هو جلي لأغلب الناس يتمثل في ضرورة امتلاك وسائل دفاع رادعة بشكل كاف لأي نية عدوان خارجي. هذا الشرط الأساسي ظهرت أهميته مع ضعف الإمكانيات الدفاعية للعراق الذي أرهقته سنوات الحرب والحصار - وكذلك الحال بالنسبة لليبيا - ممّا سهّل بشكل كبير التدخلات العسكرية الخارجية.

**لم تنس السلطات الجزائرية كيف وضع صدام حسين بنفسه بلده في مسار كارثي إثر تمزيقه «اتفاقية الجزائر» الموقعة في اذار/مارس 1975. ولقي التحول المفاجئ في موقف النظام العراقي - الذي بُرِّر بالتهديد الذي يمثله النظام الإسلامي الجديد - وتغير اتجاه تحالفاته لصالح الملكيات الخليجية تشجيعاً خبيثاً من الغربيين الذين كانوا أكثر من راضين بضربهم عصفورين بحجر واحد.**

بالنسبة للجزائر، فإنّ الاستنتاجات السياسية والأمنية من الحرب على العراق في 2003 كانت بسيطة: إذا أردت السلم فيجب أن تجهز نفسك للحرب. جهود تحديث الجيش الجزائري وتجهيزه بالعتاد التي بدأت بعد الغزو استمرت وتعزّزت مع تواصل تدهور الأوضاع الأمنية الإقليمية. ومع هذا فلا يبدو أنه قد تم استخلاص كل الدروس من هذه الحرب. ضرورة تطبيق سياسة دفاعية رادعة - وهو أمر يحظى بإجماع شبه كامل - لم تقترن بانفتاح سياسي. لم يتراجع النظام قيد أنملة فيما يتعلق بالقمع السياسي. وبخصوص علاقاته بالخارج التي شهدت تقارباً جليّاً مع الغرب خلال فترة حكم عبد العزيز بوتفليقة (1999 – 2019) - المتسمة باستفحال الفساد - فإنها لم تجلب أي منفعة للبلاد على المستوى التنموي. في هذا السياق يمثّل التقارب مع الصين وروسيا الذي لوحظ في الأشهر الأخيرة إعادة توازن للعلاقات الدولية للبلاد، في انسجام أكبر مع تقاليد الجزائر في عدم الانحياز.

**بذلت الديبلوماسية الجزائرية كل ما في وسعها لتهدئة الاندفاع الغربي نحو الحرب وحث القادة العراقيين على التعقل عبر تنبيههم إلى المخاطر الكبرى المحتملة. في هذا السياق اصطدمت الجهود المتواصلة التي بذلها الرئيس الشاذلي بن جديد في ربيع 1990 لإيجاد تسوية سياسية لمغامرة صدام حسين في الكويت برفض قاطع من قبل العراقيين.**

وسط سياق عام يتسم بالسعي الغربي إلى الحفاظ - حتى عبر اللجوء إلى الحرب - على هيمنة مهدَّدة، لا يمكن لبلد مثل الجزائر أن تكون أولويته الوصول إلى التكافؤ الاستراتيجي مع البلدان المصنِّعة. الهدف الأقرب للواقع هو أن تكون لك القدرة على إلحاق خسائر جسيمة بأيّ معتدٍ، ضمن منطق الصراع غير المتكافئ.

تنامي المخاطر في المنطقة المغاربية - والتي لا تحظى بما تستحق من الاهتمام بسبب الانشغال بالحرب في أوروبا والتوترات في الشرق الأوسط ومضيق تايوان - أمر مقلق فعلاً. الزعزعة المستمرة منذ وقت طويل

لاستقرار المنطقة بأسرها، والأزمات في ليبيا و«منطقة الساحل» التي تغذيها بشكل مكشوف تدخلات من خارج القارة، تمتد إلى الحدود الغربية للجزائر مع ظهور فاعل يكن عداء خاص للبلاد. في الواقع، تطوِّر إسرائيل في سياق تطبيع علاقاتها مع النظام الملكي المغربي تعاوناً عسكرياً موسعاً ومتعدد الاشكال يستهدف الجزائر بوضوح.

هذه الإشارات المقلقة أسهمت في تعزيز الوعي بالرهانات الأمنية التي ما انفكت أهمّيتها تتنامى منذ عدّة سنوات. ويبدو أن سياسة موائمة القدرات الدفاعية التي انطلقت منذ سنة 2005 مع التوقيع على اتفاقيات عسكرية مع روسيا[5] تتأكد أكثر فأكثر. وهذا يظهر أن القادة الجزائريين الحاليين تأملوا دروس حرب 2003، وكذلك تلك المستخلصة من عدوان «حلف شمال الأطلسي» على ليبيا في آذار/مارس 2011.

## التعددية القطبية والسيادة

على مستوى السياسة الخارجية، يكمن الدرس الذي يمكن استخلاصه من النكبة العراقية في ضرورة تعزيز تحالفات دولية متينة وفعلية. التمسك بمبادئ سياسة عدم الانحياز شرط للحفاظ على حد أدنى من استقلالية القرار بالنسبة لبلد كالجزائر له وزن سياسي متوسط في الساحة الدولية. يتعلق الأمر أساساً بضرورة تفادي تكرار الخطأ السياسي الذي ارتكبه النظام البعثي. فرغبة منه في الظهور بمظهر الشريك الموثوق، وقع صدام حسين في فخ الوعود الغربية البراقة والزائفة، ومازال شعبه يدفع التكلفة الباهظة إلى اليوم.

> **لم تنسَ السلطات الجزائرية كيف وضع صدام حسين بنفسه بلده في مسار كارثي إثر تمزيقه «اتفاقية الجزائر» الموقعة في اذار/مارس 1975. ولقي التحول المفاجئ في موقف النظام العراقي - الذي بُرِّر بالتهديد الذي يمثله النظام الإسلامي الجديد - وتغير اتجاه تحالفاته لصالح الملكيات الخليجية تشجيعاً خبيثاً من الغربيين الذين كانوا أكثر من راضين بضربهم عصفورين بحجر واحد.**

بكل تأكيد لم تسهم أحادية القطبية الأمريكية، التي تفاقمت منذ نهاية تسعينيات القرن الفائت - والمرتكزة اليوم على التبعية الجماعية لبقية الدول الغربية - في تهدئة عالم متصدع. على العكس، أطلق انهيار الاتحاد السوفياتي وما تبع ذلك من فسح المجال أمام الهيمنة الأمريكية سلسلة من الهزات العنيفة والحروب التي لا تنتهي. التدخلات العسكرية الغربية في العراق ومناطق أخرى جلبت معها الموت والحداد والدمار غير المسبوق، وغذت كل أنواع التطرف. وحتى تضمن حمايتها وازدهارها وأمنها، ليس هناك من خيار أمام كل البلدان الساعية إلى الحفاظ على استقلالية قرارها إلا العمل على إرساء نظام عالمي اقل اختلالاً. لذلك لا يمكن التفكير في الدمقرطة الضرورية للعلاقات الدولية إلا عبر تشكيل سلطات مضادة، وهو أمر لا تضمنه إلا التعددية القطبية. مبادرات التكتل الإقليمي مثل «منظمة شنغهاي للتعاون» أو الدولي على غرار تجمع «بريكس»[6] (البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا)، كلّها علامات إيجابية في طريق التسوية السلمية للخلافات بين دول ذات سيادة.

لكن، يبقى خط الدفاع الأول أمام أي خطر خارجي - وهذا ما تبرهن عليه التجربة العراقية المأساوية منذ

[5] Laurent Zecchini, *L'accord Moscou-Alger met en cause l'équilibre au Maghreb,* Le Monde, 21/03/2006.

[6] French Xinhuanet, *Les BRICS, un puissant moteur pour l'économie mondiale (SYNTHESE)*, 17/10/2016.

أكثر من 20 عاماً - وحدة الشعب وقادة البلاد. من الضروري إذاً، في العراق كما في الجزائر وفي كل أرجاء العالم العربي المأزوم بشكل دائم، التوصل إلى إعادة تأسيس نظام سياسي يحظى بقبول الأغلبية، وذلك عبر انفتاح الأنظمة على الحريات الأساسية ودولة القانون.

المأساة العراقية هي أيضا مأساة كل الامتداد العربي - الإسلامي، من الخليج إلى المحيط الأطلسي. بعد عقدين من تدمير دولته، ما يزال غياب العراق عن محفل الأمم محسوساً بقوة في مجتمعات العالم العربي. سيسترد هذا البلد ذو الثقافة الهائلة والحكمة الموغلة في القدم استقلاله وينهض من جديد. من المشرق إلى المغرب، سيعلو صوت شعب العراق الكريم مرة أخرى ويسترجع كامل صداه.

سوريا

«مجبورون بالأمل»، سندس عبد الهادي - العراق. مواد مختلفة على قماش، *2010*.

# سوريا وتداعيات غزو العراق


سمير العيطة

**إقتصادي سوري، رئيس منتدى الاقتصاديين العرب**


وقع بشار الأسد في الفخّ الذي نصبه الانسحاب الإسرائيليّ من جنوب لبنان في 2002، علماً أنّ انسحاباً سوريّاً تلقائيّاً مدروساً كان يمكن أن يؤمّن استمراراً للنفوذ في لبنان. نفوذٌ جاء بالأصل بضوءٍ أخضر أمريكي. وبقي أيضاً دون حركة إبّان الغزو الأمريكي للعراق وما تبعه، مع أنّ الأمر شكّل زلزالاً في المنطقة مع انهيار إحدى أهمّ الدول العربيّة.

ساد المشرق العربي مناخٌ يُنذِر بتحوّلاتٍ كبرى حتّى قبل هجمات 11 أيلول/سبتمبر على نيويورك سنة 2001. كان حافظ الأسد قد رحل دون أن تُفضي «وديعة رابين» إلى سلامٍ يعيد الجولان المحتلّ، وحلّ ابنه بشّار مكانه بدعمٍ واضحٍ من الرئيس الفرنسيّ جاك شيراك ووساطةٍ من رفيق الحريري، الذي كان قد عاد لرئاسة وزراء لبنان على الرغم من بداية التدهور المالي الذي أطاح به.

انسحب الإسرائيليّون من جنوب لبنان، واضعين الجيش السوري في موقعٍ حرِج، باعتبار أنّه قوّة «الاحتلال» الوحيدة الباقية، على الرغم من غياب فائدة ذلك، لِما كان لأجهزة الأمن السورية من نفوذٍ واسعٍ حينها. والعراق كان يختنق في ظلّ العقوبات، وسوريا ولبنان يستفيدان من برنامج «النفط مقابل الغذاء» الأمميّ، بل يتلاعبان على إجراءاته.

## 11 أيلول/سبتمبر وما قبل الغزو

ثمّ حدثت هجمات 11 أيلول/سبتمبر2001. لكن ليس واضحاً إن كانت جميع الفعاليّات في المشرق العربي قد أدركت حقّاً حجم التداعيات التي يُمكِن أن تأخذ إليها تلك الهجمات، خاصّةً في ظلّ إدارة أمريكيّة شديدة الغطرسة والصلافة أصلاً. هكذا ارتسمت في الأفق «عاصفة» انتقام أمريكيّة على المنطقة برمّتها توجّهت بالطبع نحو غزو العراق.

في سوريا، لافتٌ أنْ تَزامنت تلك الهجمات مع القضاء على «ربيع دمشق»، الذي عبّر عن انفتاح سياسي رافق وصول الرئيس الشاب، خاصّةً وأنّ هذا «الربيع» كان قد بدأ يؤثّر على مناخ كوادر «حزب البعث» التي راحت توجّه انتقادات شديدة للسلطة القائمة. ولافتٌ أن تشتدّ تهديدات الولايات المتحدة بوقف تهريب النفط العراقي، خاصّة خلال اتصالات وزير الخارجية الأمريكي آنذاك، كولن باول، مع الرئيس الأسد. في حين كانت أجهزة الأمن السوريّة تتعاون بشكلٍ وثيقٍ مع المخابرات الأمريكيّة لرصد واعتقال عناصر تنظيم «القاعدة» لحساب «حرب أمريكا ضدّ الإرهاب». ولافتٌ أيضاً أن يتمّ حينها عقد مؤتمر «باريس 2» برعايةٍ فرنسيّة في شباط/فبراير 2002 لتنفيذ وعود مؤتمر «باريس 1» وتأمين أموال لدعم الاقتصاد اللبناني وتجنّب الانهيار المالي.

## الغزو وتداعياته في سوريا

ثمّ جاءت تحضيرات غزو العراق. وتصدّرت فرنسا المواجهة لمنع قرارٍ في مجلس الأمن يبرّر الغزو ويسمح به، واصطفّت سوريا خلف فرنسا، في موقفٍ مغايرٍ لذلك الموقف الذي اتخذه حافظ الأسد إبّان حرب العراق الأولى في 1991، حيث شارك صوريّاً في التحالف القائم آنذاك. انتهى الأمر بسقوط بغداد في نيسان/أبريل 2003 وبوصول القوّات الأمريكيّة إلى الحدود السوريّة والتهديد باستكمالها الطريق نحو دمشق! حينها استغلّ ميشال عون ومجموعات ضغط أخرى الظرف للدفع نحو إصدار عقوبات أمريكيّة على سوريا تحت عنوان قانون «محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان».

أضحى المناخ ثقيلاً في دمشق. كما تدلّ حال سيّدة سوريّة مهاجرة إلى الولايات المتّحدة كانت تزور البلاد صيف 2003 وتتحدّث بصوتٍ عالٍ في مطعم مع ابنها الذي كانت قد دفعته للانضمام للبحرية الأمريكيّة لإنقاذه من الإدمان على المخدّرات. بات ابنها قريباً منها على الحدود العراقيّة ولا تسمح له قيادته بزيارتها (!). فتعلّق صديقتها: «لن يسمحوا له وحده، بل سيأتون بكلّ الجيش الأمريكي إلى دمشق!».

وسيّدة أخرى لم تسافر يوماً إلى الخارج وتشهد من شرفتها كيف اعتدى أحد أبناء المسؤولين وأزلامه على شابّ من الحيّ فقط لأنّه أعاق طريق موكبهم. وها هي تصرخ أمام الجمع المتجمهر: «يا ربّ يأتي الأمريكان ويخلّصونا منكم، مثلما في العراق». مشاهدٌ وأقوالٌ كانت سابقاً مستحيلة في أذهان السوريين.

**نجح الفخّ الاستراتيجي الذي نصبه الإسرائيليّون، وانسحب الجيش السوري مُهاناً في نيسان/ أبريل 2005. وكان رفيق الحريري قد اغتيل في شباط /فبراير 2005، وذهب آخرون ضحيّة هذا الفخّ والصراعات الجيوسياسيّة الكبرى التي أحدثها غزو العراق.**

ثمّ بدأ عبث الاحتلال الأمريكيّ بالعراق، مع إظهار موقفٍ تميّز بالتساهل مع إيران وبالضغط الشديد على سوريا. استنجد بشار الأسد بجاك شيراك، عبر محاولة تسريع توقيع اتفاقية الشراكة مع أوروبا التي كان الطرفان قد عرقلاها طويلاً. إلاّ أنّ الأمر اصطدم بعقبتين كبيرتين: الأولى تجلّت في عدم رغبة السلطة السوريّة في تحرير قطاع الاتصالات الذي تهمين عليه عائلتا مخلوف (أقارب بشار الأسد) والميقاتي (رئيس الوزراء اللبناني)، وتجسّدت الأخرى في إصرار أوروبا على شرط تعهدّ سوريا، دون إسرائيل، بالتخلّي عن أسلحة الدمار الشامل.

## فرنسا من حليفٍ رئيسيّ إلى قيادة المواجهة

إلاّ أنّ المفاوضات لم يكُن ليُكتَب لها أصلاً النجاح لأنّ فرنسا كانت هي أيضاً تتعرّض لضغوطات كبيرة من قبل الولايات المتحدة بسبب موقفها من غزو العراق. هكذا ذهبت الأمور إلى قطيعة سوريّة - فرنسيّة مع تفسيرات متناقضة للأسباب. فرنسا تتحدّث عن عقدٍ للغاز رفضت السلطات السوريّة منحه لشركة «توتال»، علماً أنّه كان جزءاً من مشروعٍ أكبر أوقفته السلطات الفرنسيّة في منتصف التسعينيات الفائتة، وأنّ العقوبات الأمريكيّة الجديدة تجعل أصلاً تنفيذه صعباً. كذلك لم تسمح السلطات الفرنسيّة بتقدّم بنكٍ فرنسيّ - لبنانيّ للانضمام لأوّل موجة من المصارف الخاصّة في سوريا عام 2004، في حين كان السماح بإنشاء مصارف خاصّة أهمّ مظاهر الانفتاح الاقتصادي للعهد الرئاسي الجديد، تحت عنوان «الإصلاح الاقتصادي قبل الإصلاح السياسي».

**لم يكن سهلاً على «المعارضة السياسيّة» التي انتعشت في بداية العهد الجديد أن تتعامل مع «زلازل» 2001 و2003. لقد ورثت أحزابها خطاب زمن الإيديولوجيا في الخمسينيات الفائتة وانقساماتها، والتحدّي الأكبر أمامها برز في الموازنة بين انتقاد ممارسات السلطة السياسية والاجتماعيّة ونهجها السابق والجديد، وبين نموّ الطائفيّة والتطرّف الدينيّ، وبين الموقف من التغيّرات الإقليميّة والدوليّة.**

وفي الواقع، كان لنشاط فرنسا الرئيسي في معارضة تبنّي مجلس الأمن الدولي لغزو العراق أثرٌ كبيرٌ على العلاقات الفرنسيّة - الأمريكيّة. لقد قاطع الأمريكيّون البضائع الفرنسيّة وغيّروا تسمية البطاطا المقليّة من «المقالي الفرنسيّة French Fries» إلى «المقالي الحُرّة Freedom Fries»! ولم يُعمَل على احتواء القطيعة التاريخيّة بين البلدين سوى بعد سنة من سقوط بغداد في حزيران/يونيو 2004 عند إحياء ذكرى إنزال الحلفاء في مقاطعة «نورماندي» لتحرير فرنسا من النازيّة، والذي تبعه لقاء قمّة الثمانية «G8» في منتجع

«سي أيلاند» في ولاية جورجيا. وكان أحد السبل الرئيسيّة لإعادة هذه العلاقات هو الاتفاق بين الرئيسين جاك شيراك وجورج والكر بوش على «إعادة استقلال وسيادة لبنان». فبدأ العمل المشترك على إصدار قرار مجلس الأمن 1559 للمطالبة بانسحاب كافّة القوى الخارجيّة من الأراضي اللبنانية (أي أساساً الجيش السوري) وبحلّ جميع الميليشيات اللبنانية وسحب سلاحها (والمقصود هو حزب الله).

قبلها بأشهرٍ قليلة، كان شيراك قد ربط، في خطابٍ له أمام البرلمان اللبناني، انسحاب الجيش السوريّ بانسحاب إسرائيل من مزارع شبعا. بالتالي، أدّى الانقلاب في الموقف الفرنسي - والذي نتج أيضاً عن «زَهَق» شيراك من جمود بشار الأسد عن القيام بأيّة مبادرة أمام تداعيات غزو العراق - إلى «زلزالٍ» سياسيّ على صعيد لبنان وسوريا.

## اغتيال الحريري وخروج الجيش السوري

يظهر أنّ السلطة السورية عرفت بالاتفاق بين شيراك وبوش الابن حتّى قبل التصويت على قرار مجلس الأمن. فاختارت المواجهة المباشرة في لبنان. هكذا فرِضَ تعديل الدستور اللبناني للتمديد للرئيس لحوّد في أيلول/سبتمبر 2004، بعد قرارٍ لمجلس الوزراء اللبنانيّ الذي يترأسه رفيق الحريري، والذي صوّت في البرلمان لصالح التعديل «كي لا يتمّ إذلال سوريا في لبنان». ثمّ استقال الحريري من رئاسة الحكومة في تشرين الأوّل/أكتوبر من السنة نفسها.

**بدأت سوريا (وكذلك الأردن)، حتّى قبيل الغزو، تشهد موجات لجوء للعراقيين، ازدادت بشكلٍ كبير مع معركة الفلوجة وتبعاتها في نهاية عام 2004، ثمّ خاصّةً بعد تفجير مقام الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء سنة 2006، حيث وصلت أعداد اللاجئين العراقيين في سوريا عام 2007 إلى مليونٍ ونصف المليون، سنّةً وشيعة، مسيحيين وآشوريين وأيزيديين...**

هكذا نجح الفخّ الاستراتيجي الذي نصبه الإسرائيليّون. وانسحب الجيش السوري مُهاناً في نيسان/ أبريل 2005. وكان رفيق الحريري قد اغتيل في شباط /فبراير 2005، وذهب آخرون ضحيّة هذا الفخّ والصراعات الجيوسياسيّة الكبرى التي أحدثها غزو العراق.

## الحرب الأهليّة في العراق وأثرها على سوريا

لم تكن التطوّرات في العراق ذاته أقلّ «زلزلةً». لقد اغتيل ممثّل الأمم المتحدة، التي اضطرّت لمرافقة الغزو مع انهيار الدولة وحلّ الجيش العراقي. وبدأ مسلسل التفجيرات الطائفيّة و«المقاومة» ضدّ الاحتلال. وبرزت الميليشيات الشيعيّة بدعمٍ إيرانيّ، وفي المقابل تأسّس تحالفٌ بين «تنظيم القاعدة» وبقايا عناصر الجيش والأمن العراقي السابق. فتفجّرت الحرب الأهليّة العراقية.

وكان لاعتقال صدّام حسين في كانون الأوّل/ديسمبر 2003 أثره على الجزيرة السوريّة. ففي مباراةٍ لكرة القدم في القامشلي في آذار/مارس 2004، رفع أنصار فريق دير الزور («الفتوّة») صور صدّام حسين في وجه مناصري فريق القامشلي الكرديّ («الجهاد») مقابل لافتات كتب عليها «سنضحّي بحياتنا من أجل بوش» من الطرف الآخر.. ما أخذ إلى صدامات عنيفة انتشرت في أحياء المدينة ودامت ستّة أيّام، تدخّل فيها الأمن والجيش السوريين، ووقع العشرات من الضحايا ـ أغلبهم من الكرد. ولجأ آلاف من الكرد السوريين

إلى كردستان العراق. هكذا انتقل الصراع الطائفي والعرقي من العراق إلى سوريا.

وفي الواقع، دخلت سوريا كما المنطقة برمّتها في منطق «الفوضى الخلاّقة» و«الشرق الأوسط الجديد» (!) الذي يجب إعادة تشكيله بناءً على السياسة التي اعتمدتها الإدارة الأمريكيّة حينها وأطلقتها وزيرة خارجيّتها «كوندوليزا رايس»، بدءاً من العراق ولبنان وسوريا. لكن في أيلول/سبتمبر 2006، أحبطت أجهزة الأمن السورية محاولة لتفجير السفارة الأمريكيّة في دمشق، نُسِبَت إلى تنظيم «جند الشام» المدعوم من «القاعدة». وأعادت هذه الحادثة نوعاً ما علاقات السلطة السوريّة مع الإدارة الأمريكيّة، على الرغم من اتّهام الأخيرة لسوريا بتسهيل دخول المقاتلين والسلاح إلى العراق. وبدا المشهد شديد التعقيد: سوريا حليفة لإيران وفي الوقت ذاته تتعاون مع السعوديّة لدعم «المقاومة» السنيّة في العراق.

**دعت تركيا بشار الأسد لزيارتها في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. وكانت أوّل زيارة يقوم بها رئيسٌ سوريّ لتركيا منذ انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة. وكان البرلمان التركيّ قد رفض استخدام أراضيه وقواعد حلف الأطلسي لديه في غزو العراق. تبع ذلك زيارة لرئيس وزراء تركيا رجب طيب أردوغان لتوقيع اتفاقية تجارة حرّة بين البلدين. ولم يكن لهذا الزلزال السياسيّ الإقليمي أن يحدث دون غزو العراق.**

على صعيدٍ آخر، بدأت سوريا (وكذلك الأردن)، حتّى قبيل الغزو، تشهد موجات لجوء للعراقيين. وصلت بدايةً أعدادٌ قليلة من المتنفّذين العراقيين وأبناء الطبقات الميسورة والوسطى، انضمّوا في المدن السوريّة إلى أولئك الذين كانوا قد فرّوا من قمع سلطة صدّام حسين ورفاقه. لكن الأعداد ازدادت بشكلٍ كبير مع معركة الفلوجة وتبعاتها في نهاية عام 2004، ثمّ خاصّةً بعد تفجير مقام الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء سنة 2006، حيث وصلت أعداد اللاجئين العراقيين في سوريا عام 2007 إلى مليونٍ ونصف المليون، سنّةً وشيعة، مسيحيين آشوريين وأيزيديين (بعد المعارك مع القوّات الكرديّة العراقيّة قرب الموصل). وأنشِئَت مخيّمات ضخمة للّاجئين العراقيين من الأوساط الشعبيّة في الجزيرة السوريّة. وكان لذلك تبعات كبيرة على الاقتصاد السوري.

## تركيا وقطر حليفتان لسوريا؟

في خضمّ كلّ تلك التحوّلات، دعت تركيا بشار الأسد لزيارتها في كانون الثاني/يناير 2004. وكانت أوّل زيارة يقوم بها رئيسٌ سوريّ لتركيا منذ انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة. وكان البرلمان التركيّ قد رفض استخدام أراضيه وقواعد حلف الأطلسي لديه في غزو العراق. تبع ذلك زيارة لرئيس وزراء تركيا رجب طيب أردوغان إلى سوريا في العام ذاته لتوقيع اتفاقية تجارة حرّة بين البلدين، ثمّ زيارة لرئيس الجمهورية التركيّة أحمد نجدت سيزر في نيسان/ أبريل 2005 أثناء «ثورة الأرز» اللبنانيّة التي أعقبت اغتيال رفيق الحريري، وذلك على الرغم من الاعتراضات الشديدة للإدارة الأمريكيّة. لم يكن لهذا الزلزال السياسيّ الإقليمي أن يحدث دون غزو العراق، وإن جاءت خلفيّته النظريّة في نصائح مستشار رئيس الوزراء التركيّ حينها، أحمد داود أوغلو، حول «تصفير المشاكل مع الجوار».

انطلقت تركيا، التي كان الاتحاد الأوروبيّ قد رفض انضمامها إليه كي «لا تصبح حدوده هي سوريا والعراق»، في سياسة تبنّي انتقالٍ حرٍّ للبضائع والأفراد مع دول الجوار. سياسة ارتكزت على سوريا لتخطّي الصراع مع «حزب العمّال الكردستاني PKK»، وكذلك على العراق الذي انهارت قدراته الإنتاجيّة وبات يعتمد لمعظم

مستلزماته على إيران وتركيا المتنافستين، مع استهدافٍ اقتصاديّ تركيّ لكردستان العراق لاستقراره النسبيّ ولأثره على القضيّة الكرديّة، بالإضافة إلى سياسة تعاونٍ اقتصادي وثيق مع إيران.

تسارعت خطوات التقارب السوري - التركي مع انهيار محادثات الشراكة الأوروبيّة - السوريّة ثمّ مع القطيعة مع فرنسا. ودخلت اتفاقية التجارة الحرّة بين البلدين حيّز التنفيذ عام 2007 مع آثارٍ كبيرة على القطاع الصناعي في حلب الذي لم يكُن قادراً على منافسة الإنتاج التركي ولم يُحَضَّر لذلك. وقام بشار الأسد بزيارة رسميّة لتركيا. تبعت ذلك عام 2008 وساطة تركية لمفاوضات سوريّة -إسرائيليّة للتطبيع بين البلدين ولحلّ قضيّة احتلال الجولان. وساطة بعيد العدوان الإسرائيلي على لبنان سنة 2006، انهارت بعد العدوان الإسرائيلي على غزّة في نهاية 2008 وتردّي العلاقات التركيّة - الإسرائيليّة من جرّائها. وأجرى البلدان مناورات عسكريّة مشتركة في نيسان/ أبريل 2009 وقام الرئيس عبد الله غول بعدها بشهرٍ بزيارة سوريا.

بالتوازي، توطّدت علاقة أمير قطر حمد بن خليفة آل ثاني ورئيس وزرائه حمد بن جاسم مع بشار الأسد منذ بداية عهده. ولا يبدو أنّ هذه العلاقة قد تأثّرت كثيراً من جراء استخدام الجيش الأمريكي الكثيف لقاعدة «خور العديد» في غزو العراق. بل إنّ العلاقة زادت حرارةً مع انقلاب الموقف الفرنسي وتدهور العلاقات بين الأسد والسعوديّة بعد التمديد للرئيس لحوّد في لبنان واغتيال رفيق الحريري. حتّى أنّ أمير قطر شرع ببناء قصرٍ ضخمٍ له على تلّة في الطريق بين دمشق وبيروت. كما لعبت قطر دور الوسيط خلال العدوان على لبنان في 2006 والعدوان على غزّة في 2008، دون أن ينزعج حينها أميرها من وصف بشّار الأسد لقادة الخليج ومصر بـ«أنصاف الرجال».

## «الدّولة الإسلاميّة» و«المصالحة الفرنسيّة»

ارتدّت «الفوضى الخلاّقة» في العراق على الجيش الأمريكيّ الذي بدأ يعاني كثيرا من الخسائر البشريّة والانتقادات، خاصّة مع بروز «الدولة الإسلاميّة». تحالف «أبو مصعب الزرقاوي» مع تنظيم «القاعدة» الذي يديره «أسامة بن لادن» وأسّسا «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين» الذي انضمّت إليه العديد من التنظيمات الأخرى. وسيطر هؤلاء على نواح واسعة من العراق امتدّت من الموصل إلى الأنبار وديالى وحتّى «عاصمتهم» مدينة بعقوبة القريبة من بغداد. وعلى الرغم من مقتل الزرقاوي عام 2006، أطاحت الإدارة الأمريكيّة بدونالد رامسفيلد مُدبّر غزو العراق، وأعدمت صدّام حسين وزادت عدد قوّاتها بشكلٍ كبير وأسّست ميليشيات من العشائر السنيّة تحت عنوان «الصحوات». لقد اتضح حينها أنّ العراق أضحى مستنقعاً غرقت الولايات المتحدة ذاتها في فوضاه.

> **تغيّر المناخ الدوليّ، فانطلق الرئيس الفرنسي «نيكولا ساركوزي» الذي انتُخِب عام 2007 بمشروع «الإتحاد من أجل المتوسّط» الذي يضمّ سوريا وإسرائيل. هكذا دُعيَ «بشار الأسد» لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي في 14 تموز/يوليو 2008، في الوقت الذي كانت الوساطة التركيّة تعمل خلاله على المفاوضات السوريّة - الإسرائيليّة.**

تغيّر بالتالي المناخ الدوليّ، في حين كان الاتحاد الأوروبيّ يشهد صعوبات مرحليّة، فانطلق الرئيس الفرنسي «نيكولا ساركوزي» الذي انتُخِب عام 2007 بمشروع «الإتحاد من أجل المتوسّط» هادفاً «تأمين السلام والأمن على ضفّتي المتوسّط التي ترتبط شعوبها بمصيرٍ مشترك». بالطبع يضمّ هذا المشروع سوريا وإسرائيل. هكذا دُعيَ «بشار الأسد» لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي في 14 تموز/يوليو 2008، في

الوقت الذي كانت الوساطة التركيّة تعمل خلاله على المفاوضات السوريّة - الإسرائيليّة. وبعد ثلاثة أشهر، انتُخب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة مع وعده بسحب القوّات الأمريكيّة من العراق.

## العراق والسلطة والمعارضة والمجتمع السوريين

لم يكن سهلاً على بشار الأسد الذي خلَف أباه أن يتعامل مع أحداث 11 أيلول/سبتمبر وغزو العراق وتداعياتهما. فجهاز السلطة الذي ورثه كان في مرحلة تحوّل وعدم استقرار، في ظلّ استفاقة المجتمع من سباتٍ طويل مع «رحيل الديكتاتور» و«ربيع دمشق»، وفي ظلّ التحوّل من «رأسماليّة الدولة» إلى «رأسماليّة الأقرباء والأصدقاء Crony Capitalism» الّتي عمل الأسد الابن على تشييدها تماشياً مع «منطق العصر». أُسقِطَ سريعاً الانفتاح السياسيّ الداخليّ لارتباكه أمام القرارات التي كان عليه اتخاذها على صعيد تركيبة السلطة و«حزب البعث» وعلى صعيد التحدّيات الخارجيّة، على الرغم من أنّ لا منافسة حقيقيّة كانت تهدّد ترؤسه لهذه السلطة على المدى المنظور.

لم يستفِد الرئيس الشاب من المناخ الداخليّ الإيجابيّ الذي شهدته بداية ولايته لإجراء «مصالحة وطنيّة» تُضمّد جراح أحداث «حماة» و«تدمر» (1979 - 1982)، ولم يلجأ بعد أحداث «القامشلي» في 2004 لحلّ إشكاليّات «القضيّة الكرديّة» في سوريا الموروثة منذ العام 1962. تَواجه مع أعضاء الحرس القديم لأبيه الذين كانوا قد انخرطوا في فساد «أمراء الحرب» اللبنانيين، دون أن يشكّل رؤية أو موقفاً حول بوادر الانهيار المالي في هذا البلد وتبعاته السياسيّة الداخليّة. وأفشل الانفتاح السياسيّ داخل «حزب البعث» عام 2005 كي يبقيه أداة طيّعة للسلطة وأجهزة الأمن.

> **كان المجتمع السوري يعيش بداية «التسونامي الشبابي»، مع أعداد غفيرة من الوافدين الجدد إلى سوق العمل وتسارع هجرة الريف إلى المدينة واكتظاظ ضواحي المدن الكبرى بالوافدين، وهجرة كبيرة لأبناء الجزيرة السوريّة المتاخمة للعراق نحو المناطق الأخرى. وهذا دون أفقٍ لحلّ الإشكاليّات الاجتماعيّة - الاقتصاديّة على الرغم من أنّ الدولة كانت قد تخلّصت من ديونها الخارجيّة ولديها احتياطات ملحوظة.**

لقد وقع بشار الأسد في الفخّ الذي نصبه الانسحاب الإسرائيليّ من جنوب لبنان، علماً أنّ انسحاباً سوريّاً تلقائيّاً مدروساً كان يمكن أن يؤمّن استمراراً للنفوذ في لبنان. نفوذٌ جاء بالأصل بضوءٍ أخضر أمريكي. وبقي أيضاً دون حركة إبّان الغزو الأمريكي للعراق وما تبعه، مع أنّ الأمر شكّل زلزالاً في المنطقة مع انهيار إحدى أهمّ الدول العربيّة. وراهن على المواجهة بين فرنسا والولايات المتحدة، علماً أنّ لا أفق لها على الرغم من «طيش» الإدارة الأمريكيّة التي قامت بالغزو. وعادى السعوديّة علماً أنّ استقرار حكم أبيه قام على الموازنة بينها وبين إيران، هذا فضلاً عن أنّ غزو العراق وتفشّي النفوذ الإيراني في ثناياه كانا حتميّاً سيأخذان إلى مواجهة بين البلدين.

لم يكن أيضاً سهلاً على «المعارضة السياسيّة» التي انتعشت في بداية العهد الجديد أن تتعامل مع «زلازل» 2001 و2003. لقد ورثت أحزابها خطاب زمن الإيديولوجيا في الخمسينيات وانقساماتها، لكنّها طمحت إلى تحرير الخطاب العام سواءً في «ندوات الثلاثاء لجمعيّة العلوم الاقتصاديّة» أو في «منتديات الأتاسي» أو عبر «لجان إحياء المجتمع المدني». لكنّ التحدّي الأكبر أمامها برز في الموازنة بين انتقاد ممارسات السلطة السياسية والاجتماعيّة ونهجها السابق والجديد، وبين نموّ الطائفيّة والتطرّف الدينيّ، وبين الموقف من

التغيّرات الإقليميّة والدوليّة. حاولتْ معالجة جراح «حماة» عبر الدفع للانفتاح على «الإخوان المسلمين»، لكنّ هذا التنظيم اختار الانخراط مع الحرس القديم («عبد الحليم خدّام» الذي انشقّ عن السلطة بعد اغتيال رفيق الحريري) ومن ثمّ التحوّل للحوار مباشرةً مع السلطة، أملاً بالتطبيع معها. وانفتحت المعارضة السوريّة على تيّارات لبنانيّة («إعلان دمشق بيروت» في 2006)، متناسيةً خصوصيّة هذا البلد وتفجّر الصراع الإقليميّ حينها. ووقع بعض رموزها في الفخّ الطائفيّ الذي كان يتنامى مع الحرب الأهليّة العراقيّة والمُمَأسس أصلاً في لبنان.

هذا في حين كان المجتمع السوري يعيش بداية «التسونامي الشبابي»، مع أعداد غفيرة من الوافدين الجدد إلى سوق العمل وتسارع هجرة الريف إلى المدينة واكتظاظ ضواحي المدن الكبرى بالوافدين. وهجرة كبيرة لأبناء الجزيرة السوريّة المتاخمة للعراق نحو المناطق الأخرى. وهذا دون أفقٍ لحلّ الإشكاليّات الاجتماعيّة والاقتصاديّة على الرغم من أنّ الدولة كانت قد تخلّصت من ديونها الخارجيّة ولديها احتياطات ملحوظة.

هكذا عمّق غزو العراق الثغرات على صعيد السلطة والمعارضة والمجتمع السوريين. ثغرات كانت إحدى العناصر الرئيسة التي فتحت السبيل كي يتحوّل «الربيع العربي» في سوريا إلى «حربٍ أهليّة». وما زالت آثارها تتفاعل واضعةً مستقبل سوريا، كما لبنان والعراق، ووحدة أراضيهم وتماسك شعوبهم وموقعهم في الإقليم.. في المجهول.

# شهادات
# من العراق

سيروان باران - العراق.

# جيل الفراق

ديمة ياسين

كاتبة صحافية، من العراق

أنا من جيل احتفل بنهاية الحرب صيف عام 1988، في شوارع ضجت بالناس والأغاني والرقص لثلاثة أيام كاملة، بعد إعلان وقف إطلاق النار. مارسنا احتفالاً آشورياً قديماً برش الماء على بعضنا البعض في شوارع العاصمة، غرباء جمعتهم الحرب وحدود مغلقة لثماني سنوات، حوّلت العراق إلى سجن كبير مقفل على الملايين من أهله.

أنا من جيل الفراق. جيل الأحلام الناقصة وقصص الحب البريئة التي لم تكتمل. نحن جيل مواليد السبعينيات، الذين فتحنا أعيننا على حرب الثماني سنوات مع إيران، وكبرنا ونحن نرى لافتاتٍ سود تحمل أسماء ضحايا الحرب تغطي جدران البيوت. كنا نروي عطشنا ونحن عائدون من المدارس بأكل ثمار التوت والنبق التي كانت أشجارها الضخمة تظلل شوارع المدينة وأفرعها. نشرب مياهاً باردة من السبيل الذي يضعه الأهالي أمام بيوتهم، ليرتوي الناس ويترحّموا على أرواح الذين فُقدوا أو قُتلوا في حرب بلا جدوى.

أنا من جيل احتفل بنهاية الحرب صيف عام 1988، في شوارع ضجت بالناس والأغاني والرقص لثلاثة أيام كاملة، بعد إعلان وقف إطلاق النار. مارسنا احتفالاً آشورياً قديماً برش الماء على بعضنا البعض في شوارع العاصمة، غرباء جمعتهم الحرب وحدود مغلقة لثماني سنوات، حوّلت العراق إلى سجن كبير مقفل على الملايين من أهله.

لم تدمْ الفرحة طويلاً، وعادت طبول الحرب تُقرع من جديد. لم نتنفّسْ سوى سنتين ينقصها ستة أيام فقط لتكتمل، ونعيد احتفالنا بالذكرى الثانية لانتهاء الحرب. لكن بدل أن نرشّ بعضنا بالماء هذه المرة، رُش بلدنا بالدم. احتل الجيش العراقي الكويت بأمر من صدام حسين. ثار العراقيون، فأعدمهم رجال صدام ودُفن كثير منهم أحياءً. انسحب الجيش العراقي من الكويت، فارتكبت قوات التحالف الدولي مجزرة بجنوده قطعاته في «طريق الموت السريع». عاصفة الصحراء، الصدمة والترويع، أم المعارك، محافظة النداء، حرب الخليج الأولى، العقوبات الاقتصادية، وغيرها من العناوين أطلقت على أحداث حياتنا كأنها أفلام هوليوديّة، وكأن كل ما يحدث لنا كانت تنقصه عناوين ليبرر دماءنا المسفوكة ومستقبلنا المسروق.

أنا من جيل الهروب. نحن الذين اقتُلعنا من أرضنا على عجل، عسى أن ننجو من الجوع في أيام الحصار. حملنا في حقائبنا «ما خف وزنه وغلا ثمنه»، وتوجهنا إلى باصات وسيارات تحملنا الى الأردن، المعبر الوحيد الذي كان مفتوحاً أمام العراقيين، بعد أن أُغلقت أبواب العالم وشبابيكه في وجوهنا. ما زلتُ أذكر منظر البيوت وأشجار النخيل تبتعد عني شيئاً فشيئاً، وتغيبُ في الأفق حتى تتلاشى تماماً. ما زلتُ أذكر كلمات أمي وهي توصينا بقلة الكلام والإجابات القصيرة، التي لا تكشف ما نحمله من حُلي ذهبية، أخاطتها في طيّات ملابسنا، لنهرّبها خارج حدود العراق بعد أن منعتنا حكومتنا من نقل «ما غلا ثمنه» من ممتلكاتنا الخاصة، لكننا كنا من غير ذلك سنجوع في بلد غريب.

**ثار العراقيون، فأعدمهم رجال صدام. انسحب الجيش العراقي من الكويت، فارتكبت قوات التحالف الدولي مجزرة بجنوده وقطعاته في «طريق الموت السريع». عاصفة الصحراء، الصدمة والترويع، أم المعارك، محافظة النداء، حرب الخليج الأولى، العقوبات الاقتصادية، وغيرها من العناوين أطلقت على أحداث حياتنا كأنها أفلام هوليوديّة، وكأن كل ما يحدث لنا كانت تنقصه عناوين ليبرر دماءنا المسفوكة ومستقبلنا المسروق.**

على حدود العراق اصطفّ الرجال والشباب في صفٍّ واحد طويل للتفتيش، لا يرتدون سوى ملابسهم الداخلية، بينما عبثت امرأة بأجسادنا نحن الإناث في غرفة تفتيش النساء. المشهد نفسه، أعيد في حدود الأردن، صف طويل من رجال نصف عراة وغرفة للنساء تلمس فيها المفتشة صدورنا، وبين أفخاذنا تبحث عن أسرارنا المدفونة.

هكذا بدأت الحكاية، أو ربما انتهت. حكاية جيلٍ بأكمله. وُلدنا لنجد الحروب في انتظارنا، تذهب واحدة، فتترك الباب مفتوحاً لأخرى. كنا مراهقين أو على أعتاب سنّ العشرين. نرى الأسى في عيون أهالينا وخوفهم

علينا من الضياع في بلدان لا يعرفون فيها أحداً. تحوّلنا فجأة الى عبء كبير عليهم، خاصة الإناث منا. فنحن أيضاً جيل عرائس الاغتراب. في ليلة وضحاها تحوّل الآباء والأمهات إلى باحثين عن «نصيب جيد» لبناتهم. وتعريف «النصيب الجيّد» هنا اعتمد لدى كثيرين على جواز سفر وبلد إقامة الخطيب المستقبلي. أصبح الرجل الذي «نفذ بجلده» واستطاع الرحيل إلى خارج البلاد «بضاعة مرغوبة» ومشروع هروب ناجح من بلاد الحروب إلى بلاد المستقبل. هكذا بدأ «زواج الصالونات». بدأه أمهات وآباء. تزوج كثير منهم عن علاقات حب يحكونها لأولادهم وبناتهم، ثم يعرضون لهم/لهن صوراً ملونة لمشاريع أزواج وزوجات المستقبل.

زيجات انتهى كثير منها بالطلاق.

> **تذكرتُ ما كنا نردّد في العراق مع كل حرب أو أزمة تحدث «الموت مع الجماعة أرحم»، كنت أبحث عن الرحمة بين كل هذا الموت. وجدت جمعاً كبيراً من الناس يتحلقون حول شاشة تلفاز كبيرة في الكافيتريا. كان الهدوء والوجوم يعمّان المكان وصوت المذيع يردد اسم بغداد ما بين كلمات سريعة لاهفة.**

أنا من جيل من رحل منه لم يعد. فبعد أن تركنا الأرض، أكلتها الحروب وأصبح من بقي منا فيها وقوداً لنيرانها. فغذينا بلاد الغربة بأحلامنا المبعثرة بين لغات جديدة نحاول إتقانها، ومجتمعات أكثرها لطفاً يستغل حاجتنا لبعض استقرار، فيرفع إيجارات البيوت أضعاف سعرها، وأغلبها يرى فينا «حرامية»، نسرق فرص العمل والضرائب ونزاحم «أهل البلد» على لقمة عيشهم. لذلك عندما شاهدنا احتلال بلادنا يُنقل حياً مباشراً على الفضائيات، كنا مشوشين. فكل ما يحدث هو امتداد «منطقي» لكل تلك الحروب والأزمات التي شهدناها في حياتنا، لكن هل يعقل أن تستمر دوامة الخراب تلك وتزداد عمقاً وسواداً كل يوم؟

> **صمُتَ عقلي، لم أفكر حتى بمن بقي من عائلتي الممتدة هناك، لم أفكر بالأصدقاء والبيت. كل ما خطر في مخيلتي تلك اللحظة هي أشجار التوت والنبق والنخيل. لا أعرف لماذا، كأن ذكرياتي في العراق كله تجمعت فيها. كان صوت نحيب جارتنا في بغداد، والتي فقدت أخاها في حرب إيران يتردد في أذني، نحيب سمعته كل يوم ولسنين طويلة من شباك غرفتي.**

تتشبّث أعيننا التي ودّعها النوم حينها بشاشاتٍ لا تتسع لحجم ذكرياتنا ومعرفتنا لتلك المدن التي تحولت الى منظر سينمائي متلفز من دخان ونار. لتلك القنابل التي أمطرت مدننا القديمة ومسحت آثار أقدامنا وأصابعنا وأنفاسنا عنها. كنتُ حينها أعمل في جامعة أمريكية في بلد عربي. كنا قبل سقوط بغداد بأيام نجمع أنفسنا، نحن العراقيين والعراقيات من موظفين/ات وطلاب في الجامعة لنشكل مجموعة ترفض دخول الاحتلال لبلادنا، واعين تماماً بأن ما نفعله هو ذو طابع معنوي فقط لن يغيّر أبداً من واقع الأشياء.

كانت قوات الاحتلال تتقدّم في الأراضي العراقية وتقترب من العاصمة ويتناقل أخبارها الآخرون من غير العراقيين كأنها إحدى ألعاب الفيديو أو مسلسل حربي شائق يتابعه الجميع. توقعات ورهانات وحلفان على أن بغداد لن تسقط، ستقاوم المحتل، وكأن دخول باقي العراق كان عادياً. كنا نسمع عبارات مثل

«بغداد ستصدّهم! لن يستطيعوا دخولها. هؤلاء «العلوج»، لن يدخلوا بغداد». مصطلح «العلوج»[1] هو ما كان يردده محمد سعيد الصحّاف، وزير الخارجية العراقي آنذاك، ليصف القوات الأمريكية، فيضْحَكُ العالم، ويبحث عن أصل كلمة «علوج». صدّق البعضُ الوزيرَ ببذلته العسكرية ونكرانه لوصول الدبابات الأمريكية لأطراف بغداد.

صدام حسين، الرئيس العراقي، ظهر ببذلته العسكرية في أحد شوارع بغداد يُحيّي الناس وهم يلتفون حوله بالهتاف والأهازيج. منظر اعتدناه نحن الذين عاصرنا تلفزيون العراق الرسمي وجولات الرئيس في الشارع والبيوت والمدارس ليوزع «مكارمه» على شعب خائف صدّق أن «للحيطان آذاناً». كان معظمنا يعرف أن من ظهر في الفيديو المسرب للرئيس هو «بديل» صدام حسين، شبيه الرئيس الذي كان يظهر في الأزمات بعد أن تعرضت «النسخة الأصلية» لمحاولات اغتيال عدة.

عندما سمعتُ بدخول القوات الأمريكية لبغداد، دخلتُ مكتبي في الجامعة بسرعة وأغلقتُ الباب. شعرت بأنني قد سقطتُ في دوامة مظلمة لا قرار لها. كان الهواء ثقيلاً يجثم كالصخرة على صدري. توقف عقلي عن التفكير، فأي منطق هذا الذي يبيح كل هذا الظلم، ألم يكتفِ العالم من دمائنا؟ تركت مكتبي بسرعة كأنني أهرب من نفسي واتجهت الى كافيتريا الطلبة، حيث عادة ما نجتمع نحن العراقيين لنواسي بعضنا.

**بعد الاحتلال، بحثتُ في الناجين من الناس الذين أعرفهم فوجدت قصص قتل وتهجير وخطف واغتيالات تنتظرني. لم أعُد إلى العراق حتى عام 2019، بعد 27 سنة من الغياب. عدتُ إلى شوارع تغيّرت ملامحها. كان الناس يتظاهرون ضدّ من وصلوا إلى الحكم بعد الاحتلال. كان من التقيت بهم هناك، يحملُ كلٌّ منهم عشرات القصص عن فقدانهم لأحبة في الحرب الأهلية والتفجيرات.**

كنت أبحث في الوجوه المخطوفة عن ناسي، عمَّن يفهم كل هذا الثقل الذي يجثم على صدري. تذكرتُ ما كنّا نردّد في العراق مع كل حرب أو أزمة تحدث «الموت مع الجماعة أرحم»، كنت أبحث عن الرحمة بين كل هذا الموت. وجدت جمعاً كبيراً من الناس يتحلقون حول شاشة تلفاز كبيرة في الكافيتريا. كان الهدوء والوجوم يعمّان المكان وصوت المذيع يردد اسم بغداد ما بين كلمات سريعة لاهفة، أو ربما تخيّلتها أنا كذلك. كانت الشاشة تعرض صوراً لمواطنين عراقيين يبدو عليهم عوز وتعب الحصار يركضون حاملين كراسي ومستمسكات وأغراضاً مختلفة. يحملون كل ما يُحمل من المباني والدوائر الحكومية، بينما تقف مدرعات الجيش الأمريكي وجنوده بخوذهم ورشاشاتهم متفرجين. لمحت من بين الطلاب بعض من أعرفهم فاقتربتُ أبحث عن الموت الرحيم معهم. قلتُ بصوت مخنوق: ما الذي يحدث؟ فأجاب أحدهم بوجوم: نهب وسلب لدوائر الحكومة. قلت بلا تفكير: لماذا؟ فجاء الرد من طالب عراقي لم يتجاوز عمره التاسعة عشرة، أعرفه لأنه كان من أشد المتحمسين لتجمعنا العراقي شبه اليومي، والذي بدأناه مع بدء إعلان عمليات الاجتياح، وكنت أعرف جيداً إنه لم يرَ العراق أبداً. جاء صوته بارداً، غريباً ومختلفاً «جاء وقتنا، أم إنكم كنتم تظنون إنها ستدوم لكم؟». توقف الزمن في تلك اللحظة تماماً وسمعت صوتي يقول: من تقصد؟ نحن مَن؟

صمتَ عقلي، لم أفكر حتى بمن بقي من عائلتي الممتدة هناك، لم أفكر بالأصدقاء والبيت. كل ما خطر في مخيلتي تلك اللحظة هي أشجار التوت والنبق والنخيل. لا أعرف لماذا، كأن ذكرياتي في العراق كله تجمعت فيها. كان صوت نحيب جارتنا في بغداد، والتي فقدت أخاها في حرب إيران يتردد في أذني، نحيب سمعته كل يوم ولسنين طويلة من شباك غرفتي القريبة من شباك غرفتها. كنت أراها أحياناً

[1] الرجل الغليظ البدائي المتوحش.

صامتة تجلس تحت شجرة النبق الكبيرة في حديقة دارهم، ساهمة في الفراغ. لم أرها وهي تبكي أبداً، لكنني كنت أسمع نحيبها الذي يسمعه الناس في الحي، فيحكون قصة فقدانها لعقلها عندما سمعت خبر استشهاد أخيها التوأم في بداية الحرب.

قال «كنتم تظنون إنها ستدوم لكم!» من نحن؟

> **هكذا بدأت الحكاية، أو ربما انتهت. حكاية جيلٍ بأكمله. وُلدنا لنجد الحروب في انتظارنا، تذهب واحدة، فتترك الباب مفتوحاً لأخرى. كنا مراهقينَ أو على أعتاب سنّ العشرين. نرى الأسى في عيون أهالينا وخوفهم علينا من الضياع في بلدان لا يعرفون فيها أحداً. تحوّلنا فجأة الى عبء كبير عليهم، خاصة الإناث منا. فنحن أيضاً جيل عرائس الاغتراب.**

بقي طنين صافرة الإنذار الحقير في رأسي يعيد نفسه لسنوات كلما دخلت غرفة مظلمة أو أطفأت النور لأنام. لم آكل اللحم لسنين طويلة لأن رائحته كانت تذكرني برائحة اللحم البشري المحروق التي فاحت في شوارع حيّنا بعد أن قصفت قوات التحالف ملجأ العامرية عام 1991 وقتلت فيه ما يزيد على 400 من المدنيين. لا يزال صوت الألعاب النارية وشكل الدخان يرعبني رغم محاولاتي المستمرَّة في تذكير نفسي أنها تطلق للاحتفال لا للموت.

بعد الاحتلال، بحثتُ في الناجين من الناس الذين أعرفهم فوجدت قصص قتل وتهجير وخطف واغتيالات تنتظرني، وقد أخذَتْ من أخذت منهم. لم أعُد إلى العراق حتى عام 2019، بعد 27 سنة من الغياب. عدت إلى شوارع تغيّرت واختلفت ملامحها. كان الناس يتظاهرون ضدّ من وصلوا الحكم بعد الاحتلال.

كان من التقيت بهم هناك، يحملُ كلٌّ منهم عشرات القصص عن فقدانهم لأحبة في الحرب الأهلية والتفجيرات، وعن جثث كانوا يمرون بها في طريقهم إلى المدارس. مرَّ عشرون عاماً على الاحتلال، وما زلت لا أعرف مَن «نحن» التي كان يقصدها ذلك الشاب العراقي. كلّ ما أعرفه أنني وفي أحيانٍ كثيرة أشعر بأن كل ذلك الظلام الذي مررتُ به أنا وجيلي أصبح لا يقارَن بالظلام الذي مرّ به جيل الاحتلال والحرب الأهلية. بالنسبة لهم نحن جيل الخلاص. فالضياع والشتات ربما كانا أرحم من الموت «الرحيم» مع الجماعة - التي أصبحتْ «نحن» و«أنتم» و«هُم». جماعات تولِّد جماعات. تُفرّقنا طريقة التلقين رغم أننا مجموعون، كُلنا بلا استثناء، في الدوامة السوداء ذاتها، بعمقها الذي لا ينتهي.

مبين الخشاني - العراق.

# «أوميتا فوبيا»: عيون الطفولة المفقوءة

مبين الخشاني
كاتب من العراق

كانت سنة الاحتلال الأولى، وفي جوٍ يملؤه دخان القصف وغازات الحرائق. كانت العيون السليمة تتأثر، فكيف بعينين حسّاستين؟ كلّ ما حولي كان يدفعني للعمى: أسئلة الطبيب وعيادته ذات الإضاءة المزعجة، غبار الطلع الممزوج بغازات غير نظيفة، نصال السكاكين الموجهة نحوي، الشمس القاسية وأشعتها التي تخترق طبقات النظر، الألوان العسكرية وما تسببه من شعور بالكتمة، وأخيراً سياج المدرسة الذي يخنقه سلك شائك كما يخنق حياتنا.

الربيع الذي يتغنّى به الجميع وتنتظره الحدائق، عروس الفصول أو ملكها المتوَّج، كان بمثابة نكبةٍ لطفلٍ يعاني من حساسية صعبة يسببها غبار الطلع، وتختلف أعراضها من شخصٍ لآخر حسب نوعها.. هذا الطفل كان أنا.

النوع الذي أعاني منه يسبب حكة في فصوص العين وسيلاناً مزعجاً للدموع، وتظهر في باطن الجفون حبيبات بيضاء متناهية الصغر، وبذلك تصبح نسائم الربيع الندية سكاكين تجرح العيون، وتغدو الورود الزاهية قواذف شرر وأشواكاً عليّ تجنبها.

حرمني غبار الطلع من متعة اللعب أو الفرجة في مناخ الربيع الرائق، حيث كانت تُمارَس في ذلك الوقت ألعابٌ شعبيةٌ في ساحات غير بعيدة عن أشجار النخيل أو بعض النباتات الطبيعية. أذكر لعبة «حاح ويدَّة»[1] التي كان أطفال شارعنا ممن هم أكبر مني يلعبونها قرب «كَصبة»[2] للمياه الآسنة، تنبت فيها نباتات طبيعية غير مرغوبة ويبرز منها القصب كرماح صدئة.

هذه كانت معاناتي.. وهي معاناة لم تقتصر على ما تسبّبه الحساسية من حكةٍ شديدة في فص العين وطرْفٌ لا إرادي، فوق العادة، جعلني عرضة للتنمر في الشارع والمدرسة لاحقاً، بل حفّزت عندي رهاباً كريهاً سمّمَ طفولتي من الأشكال الشائكة والأشياء التي لها نصال حادة ومدببة. مجرّد ذكر هذه الأشياء أو رؤيتها يستدعي خيالاً عنيفاً يصوّر لي بأنها ستفقأ عينيّ وتدميهما، ولم يزل أثر الرهاب حتى اللحظة.

كل ما هو شائك، مدبب، أو له نصل حاد أراه، أتخيله، سيفقأ عيني، مثل إبرة الخياطة والسكاكين والنباتات ذوات الأشواك، وحتى الحافات الحادة لقطع الأثاث المسالِمة كالطاولات وغيرها من الأشكال

[1] حاح ويدَّة: النسخة الشعبية من لعبة البيسبول بادوات بدائية وقواعد مخفّفة. الحاح هو علبة ببسي بلاستيكية تُملأ بقليل من الرمل لتكتسب ثقلاً ما، واليدَّة هي المضرب الخشبي الذي نصنعه من الخشب الزائد عن الحاجة في البيوت.

[2] الكَصبة: في بعض المناطق الشعبية والأرياف التي تفتقد للبنى التحتية ولا تملك نظام صرف صحي، فإن سواقي الصرف الخارجة من البيت تصب في ساحة فارغة قريبة على الشارع الذي يضم البيوت، وفي تلك الساحة تتجمع المياه الاسنة والثقيلة مما ينبت فيها القصب وبعض النباتات الطبيعية الشائكة، إضافة إلى تواجد بعض الحيوانات كالضفادع والقنافذ ودجاج الماء الاسود، لذلك تسمّى كَصْبة.

العديـدة التـي جعلـت نعمـة البـصر نقمـةً وضـوء العيـون بـلاءً.

> **كل مـا هـو شـائك، مدبـب، أو لـه نصـل حـاد أراه، أتخيلـه، سـيفقأ عينـي، مثـل إبـرة الخياطة والسـكاكين والنباتـات ذوات الأشـواك، وحتـى الحافـات الحـادة لقطـع الأثـاث المسـالِمة كالطـاولات وغيرهـا مـن الأشـكال العديـدة التـي جعلـت نعمـة البـصر نقمـةً وضـوء العيـون بـلاءً.**

يعـرف هـذا الرهـاب باسـم (ommetaphobia)، وهـو نـادر لم أصـادف في حيـاتي أحـداً يعـاني منـه، ولم أكـن أعـرف عنـه شـيئاً حتـى وقـت قريـب، عندمـا بحثـتُ عـن الأعـراض التـي سـممت طفولتـي فوجـدت أنهـا تعـود إلى نـوع فوبيـا نـادر لكنـه موجود.

هـذا كان جحيمـي السـري الـذي صعّـب عـلى طفـلٍ شرحـه حتـى لأمـه، لذلـك حتـى الطبيـب لم يفهـم مـا كنـت أصفـه لـه مـن خيـالات تأتينـي إذا مـا رأيـت شـكلاً شـائكاً أو مدببـاً، فسـأل أمـي إذا مـا كان لي أخ أصغـر يشـعرني بالغـيرة، فأخبرتْـه أمـي بـأني آخـر العنقـود ومحـط اهتـمام العائلـة، فصمـتَ قليـلاً ونظـر إلي ثـم أخـبرني بـأن عـليّ مقاومـة الطَـرف ومنـع نفـسي مـن فعلـه قـدر المسـتطاع.

لا أنكـر لطافـة الطبيـب العجـوز رغـم إضـاءة عيادتـه المؤذيـة، إلا أنـه لم يقـع عـلى علّتـي حـين أخبرتـه بمـا أتخيلـه ويسـبب لي صعوبـة قبـل النـوم كل ليلـة. لم يفهـم أن الحكـة أشرس مـن أن أقاومهـا، وأن الأمـر أكـبر مـن حساسـية غبـار الطلـع. صمـتٌ بعـد ذلـك.

تعايشـتُ مـع الحكـة والأدويـة التـي حرصـت أمـي عـلى تذكـيري بتناولهـا كل ليلـة قبـل النـوم، وتمكنـتُ مـن ابتـكار وسـائل دفـاع تجنبنـي شـعور الفـقء الـذي اشـتدّ بسـبب رؤيتـي لآليـات وأسـلحة جيـش الاحتـلال الأمريـكي في كل مـكان.

كانت وسائل الدفاع التي ابتكرتها لمواجهة خيالات الفقء، خيالية أيضاً. كنت أحارب الخيال بالخيال، وإذا ما عانيت من نوبة رهاب قوية، كنت أتخيل سيل ماء بارد يمر عبر عينيّ وينظفهما كما ينظف سطحاً زجاجياً من كل شائبة عالقة فيه. هكذا فقط كان بإمكاني النوم ليلاً، لأجد وسادتي في الصباح مبتلة بدموعي.

كنتُ في عمر الخامسة، وجاء موعد تسجيلي في المدرسة في مدينة النعمانية بمحافظة واسط. وبعد مشوار طويل تضمن الفحص الطبي وشراء استمارات التسجيل من شارع المكتبات، قطعتُ مع أمي شوارع المدينة بصعوبة مرتدياً نظارة شمسية أكبر من وجهي. كنت أثبتها من حين إلى آخر بأصابعي، لكنها سقطت على الرغم من ذلك أكثر من مرة. كانت أغلب الشوارع مقطوعة وملأى بأرتالٍ من قوات الاحتلال، لذلك كان المشوار أطول وأعقد من العادة.

طُلب مني بعد الفحص صورةٌ رسمية لأجل الوثيقة المدرسية. استنفر أهلي لهذا الأمر وبدأ إخوتي تلقيني عدم إغماض عيوني أثناء التقاط الصورة، وأنّ عليّ إبقاء عينيّ مفتوحتين دون أن أرمش حين يبرق ضوء الكاميرا.

**تعايشتُ مع الحكة والأدوية التي حرصت أمي على تذكيري بتناولها كل ليلة قبل النوم، وتمكنتُ من ابتكار وسائل دفاع تجنبني شعور الفقء الذي اشتدّ بسبب رؤيتي لآليات وأسلحة جيش الاحتلال الأمريكي في كل مكان.**

كانوا يحاولون المساعدة، وكنت أستجيب لتلقينهم، حتى أنّي تمرّنت مع أختي على إبقاء عينيّ مفتوحتين لأطول فترة ممكنة. كانوا يشجعوني بالقول إني سأصبح تلميذا شاطراً، ويطلبون مني أن أحسب لهم من الواحد إلى المئة وحين أصل إلى العشرين كانوا يكتفون بذلك مرْبّتين على كتفي، ويذكرونني بأنّ علي فتح عيني أمام عدسة المصوّر.

حمّلتني التحذيرات مسؤولية كبيرة، شعرت بالخوف وضاق صدري، بعدها رافقتني أمي إلى المصوِّر وكنت أتشبّث بيدها بقوة حتى شعرتْ بحرارة يدي وسألتني إذا ما كنت أشعر بالمرض، لكني أجبتها أنني بخير.

بسبب آليات الاحتلال والنقاط العسكرية التي تغلق أغلب شوارع المدينة، كان علينا أن نقطع شارع المدرسة الطويل حتى نتمكّن بعد ذلك من الذهاب إلى المصوِّر. كان الشارع طويلاً جداً ويحوي في نهايته مدرسة يتخذها جيش الاحتلال كقاعدة له، وتنتشر على طوله الآليات وسيارات الـ«همفي» والمدرّعات، وكانت مراوح الطائرة الهليكوبتر تظهر من خلف سياج المدرسة المنخفض.

كان سياج المدرسة مدججاً بسلك شائك على طوله، وعلى بعد كل بضعة أمتار كانت هناك كومة من الأسلاك الشائكة الجارحة، يحدد من خلالها جنود الاحتلال مسار المشي المسموح به ويمنعون سير العربات فيه، إضافة الى انتشار الجنود بأسلحتهم الموجهة إلى المارة وسكاكينهم المثبتة على بزاتهم العسكرية.

عند نقطة دخول الشارع، خلعتْ أمي نظارتي الشمسية حتى لا تثير ريبة الجنود، وأنا أغمضت عيني وشددت قبضتي على يد أمي ورحت أحسب مع نفسي من الواحد إلى المئة، لكني تعثرت وسقطت سقطة مؤلمة، دخل التراب في فمي وكشطت حصاة قطعة جلد صغير تحت عيني فخرج دم قليل جداً. لم أبكِ لكنني تألمت، مسحت أمي التراب ونظفتني ثم أكملنا السير في طريق تكرهه عيناي.

كانت سنة الاحتلال الأولى، وفي جوٍ يملؤه دخان القصف وغازات الحرائق، كانت العيون السليمة تتأثر،

فكيف بعينين حسّاستين؟ كل ما حولي كان يدفعني للعمى: أسئلة الطبيب الغريبة وعيادته ذات الإضاءة المزعجة، غبار الطلع الممزوج بغازات غير نظيفة، نصال السكاكين الموجهة نحوي في بسطيات الكراج، الشمس القاسية وأشعتها التي تخترق طبقات النظر، الألوان العسكرية وما تسببه من شعور بالكتمة، وأخيراً سياج المدرسة الذي يخنقه سلك شائك كما يخنق حياتنا.

**بسبب آليات الاحتلال والنقاط العسكرية التي تغلق أغلب شوارع المدينة، كان علينا أن نقطع شارع المدرسة الطويل حتى نتمكّن بعد ذلك من الذهاب إلى المصوِّر. كان الشارع طويلاً جداً ويحوي في نهايته مدرسة يتخذها جيش الاحتلال كقاعدة له، وتنتشر على طوله الآليات وسيارات الـ«همفي» والمدرعات، وكانت مراوح الطائرة الهليكوبتر تظهر من خلف سياج المدرسة المنخفض.**

بعد كل ذلك كان عليّ اجتياز الطريق ممسكاً بيدِ أمي حتى أصل إلى محل التصوير، وعليّ بعدها أيضاً أن أفتح عينيّ على اتساعهما لأجل صورة سترافقني بقية حياتي.

على كرسيّ المصوّر، شعرتُ بأني أمام عاصفة سكاكين يحملها الهواء البارد الخارج من فوّهة آلة التكييف، والمصور بسيجارته التي لا يخرجها من فمه طلب مني أن أرفع رأسي، وأن أنظر إلى الكاميرا. جعلتُ ظهري بشكل مستقيم وفتحت عينيّ على اتساعهما لكني لحظتها كنتُ بلا نظر، لم أرَ أي شيء سوى سواد تخترقه نصال حادة ترافقها حكة شديدة كأنّ عينيّ معاقبتان. قطعتُ نَفَسِي حتى سمعتُ صوت التقاط الصورة، فضحك المصور وأخبرني بأن الفلاش لا يؤذي، إنها صورة وليست إبرة، بينما كان لكل شيء حولي أثر إبرة تفقأ العيون.

ظهـرت الصـورة أخـيراً لطفـل بندبـة صغـيرة، عينـاه تجحظـان بطريقـة تثير ضحـك كل مـن يراهما، لكـن الضحكات لـن تغـيّر حقيقـة أنهـا صـورة لطفـل حـرب تعيـس، نظرتـه محنَّطـة وبـصره مثلـوم. بقيـت الأشـياء الحـادة تجـرح نظـرتي حتـى الآن، وكل التقاطـة كامـيرا تحمـل معهـا صـوت تحذيـر «أن أفتـح عينـي قـدر مـا اسـتطعت».

**نصّ وكولاج: مبين الخشاني**

سيروان باران - العراق.

# انتظرنا «ماتركس» ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً


أماني الحسن

صحافية من العراق


مثل طفلٍ ضغط على زرّ التوقف في منتصف فيلم رعب عند أشد المشاهد خطورة، هكذا كانت الأيام التي سبقت احتلال العراق في نيسان /أبريل 2003. توقفت الحياة والمدارس والدوائر الحكومية.

كانت عمّتي تمدّ غطاءها الصغير الذي لا يتسع لأنصاف أجسادنا، لتخفي بين ثناياه ثمانية من أطفال أخيها. حدث ذلك في الوقت الممتدّ ما بين نهاية آذار/ مارس وبداية نيسان/ أبريل 2003. حين كان ضوء الانفجار يسطع ويتسلّل نوره من تحت الغطاء، جَعلتنَا نتسابق لمعرفة عدد الإضاءات، وفي بعض الأحيان كانت تقول إنّ الإله يلتقط لنا صورة جماعية، وعلينا الابتسام حتى تبقى تلك الصورة محفوظة لديه لنراها فيما بعد.

بأنفاسها المتقطعة نتيجة المرض والحمل، وبذراعيها الصغيرتين وقدرتها على إزالة رعبنا لتحيله إلى طمأنينة، استطاعت تحويل تلك الطلقات والانفجارات إلى لعبة نجونا منها جميعنا.. تقريباً.

## قبيل الغزو

مثل طفلٍ ضغط على زرّ التوقف في منتصف فيلم رعب عند أشد المشاهد خطورة، هكذا كانت الأيام التي سبقت احتلال العراق في نيسان 2003. توقفت الحياة والمدارس والدوائر الحكومية.

كنت حينها قد تجاوزت عتبة الستة أعوام بأيام. كان الخوف يهيمن على ديالى، وتحديداً عاصمتها مدينة بعقوبة. بدأ «الرفاق البعثيون» وقتها بصنع الثكنات العسكرية. أكياس رمل وحفر وسلاح، باتت كلها مكونات أساسية لصنع الثكنة. أُجبر أبناء المناطق السكنية على حمل السلاح وأصبح اللون الزيتوني لون الشوارع. وضعوا الرشاشات والأسلحة المتوسطة على أسطح المعامل والدوائر الحكومية، ونصبونا نحن دروعاً بشرية لهم.

حفظتُ أسماء كل سلاح يُطلِق النار، وعرفنا جميعنا أفعالها، لكثرة ما تداول الكبار صفاتها ومواصفاتها.

> **أطلق أهالي الجنوب الذين خاضوا المعارك ضد الاحتلال تسمية «الدجاجة البيضاء» على محافظة ديالى، لكونها فقيرة وجبانة ولا تقاوِم وبيضاء تدّعي السلام. كانت ديالى «سمحة» مع الأمريكان، أسوة بمحافظات أخرى تشبهها، وحظيت بالتسمية ذاتها واسط والسماوة ومناطق مختلفة في المدن الكبيرة.**

وسرعان ما شاع خبرٌ عن صدور قرار من البعث يقضي بتجنيد جميع من هم فوق 15 عاماً، فهرب خوفاً من التجنيد غالبية المراهقين والشباب الذين كانت الشوارع تزدحم بهم حتى ذلك الوقت، والبعض ودّع أهله وسط عويل الأمهات. لم تكن جراح العراقيين قد شفيت بعد من حروب صدّام.

تبين لاحقاً أنّ تلك ما كانت سوى خطة أعدها «الرفاق» لتهريب بعض المسؤولين عبر/ إلى محافظة صلاح الدين، ومنهم العالمة هدى صالح مهدي عماش[1] التي لقّبتها قوات الاحتلال الأمريكي بـ«سيدة الجمرة الخبيثة».

ليست إشاعة التجنيد الإجباري وحدها ما بعث الخوف فينا.

كانت الأمور كلها متوجهة نحو الموت والبشارات والوعود المتوالية بأن «صدام لن يسلّم العراق إلا وهو تراب». أدركنا وقتها مستقبلنا.. دماء مختلطة بالتراب الذي سيتركه صدام لأمريكا.

---

[1] عالمة عراقية اعتقلتها قوات الاحتلال الأمريكي في أيار/مايو 2003 بعد اتهامها بأنها من الشخصيات التي تحاول إحياء البرنامج النووي العراقي وأفرج عنها في 2005.

## ديالى «الدجاجة البيضاء»

أطلِق الصاروخ الأول باتجاه محافظتنا على دائرة المخابرات في منطقة بعقوبة الجديدة، وأعقبه آخر على دائرة عسكرية أخرى، ثم كراج البحيرة فمعسكر سعد القريب من بيتنا، لتُعلن بذلك ساعة الصفر.

لم تقاوم ديالى.

كل تلك الاستعراضات من «الرفاق» قبل دخول الأمريكان استمرت لأيام قليلة ولم تسفر عن شيء. لم تحتج قوات الاحتلال لأكثر من يومين للسيطرة عليها.

أطلق أهالي الجنوب الذين خاضوا المعارك ضد الاحتلال تسمية «الدجاجة البيضاء» على محافظة ديالى، لكونها فقيرة وجبانة ولا تقاوم، وبيضاء تدّعي السلام. كانت ديالى «سمحة» مع الأمريكان، أسوة بمحافظات أخرى تشبهها، وحظيت بالتسمية ذاتها واسط والسماوة ومناطق مختلفة في المدن الكبيرة.

كانت ديالى تريد عبور هذه الفترة من دون فقدان أحد أبنائها، على الرغم من أنها فقدت كثيرين وأصاب أبناءها الرعب لهول ما حدث بعدها. بيد أن المأساة كانت مضاعفة علينا نحن الساكنين في المناطق القريبة من «معسكر سعد» الواقع في بعقوبة، مركز محافظة ديالى، بعد دخول الأمريكان.

قيل وقتها إنّ المعسكر يحتوي على صواريخ، وقيل إن بين جدرانه أسلحة دمار شامل ونووي، وقيل إنه يحتوي على الجنّ. لذلك، ارتأى الأمريكيون تطهيره وتطهيرنا منه بتفجير الأسلحة فيهِ للتخلص من لعناتها.

«اطلعوا من بيوتكم»، كانوا يبلغوننا عبر مكبّرات الصوت قبل التفجير.

**«اطلعوا من بيوتكم»، كانوا يبلغوننا عبر مكبرات الصوت قبل التفجير. البعض منا كان يهرب إلى القرى البعيدة، مثل حد مزيد وشهربان وقرية السواعد. تتكدس كل ثلاث عوائل أو أربع في بيت واحد، أما الآخرون ممن ليس لديهم مأوى، فيخاطرون ويقررون البقاء.**

البعض منّا كان يهرب إلى القرى البعيدة، مثل حد مزيد وشهربان وقرية السواعد. تتكدس كل ثلاث عوائل أو أربع في بيت واحد، أما الآخرون ممن ليس لديهم مأوى، فيخاطرون ويقررون البقاء.

كانت عائلتي المكونة من 11 فرداً تهرب في البداية إلى قرية حد مزيد التي تبعد عن منطقتنا 15 كيلومتراً. وعلى الرغم من بُعد المسافة، إلا أن أصوات التفجيرات كانت تصلنا.

**في هذه الأثناء كبرنا كل يوم. لاحظنا ذلك من تعلمنا السريع لأساليب الحماية: كيف نصم آذاننا وكيف نستبدل زجاج الشبابيك بأكياس التراب حتى لا تقتل الشظايا أحد. كيف نستعين عند غياب الأساس بالبدائل، نجمع الحطب من الأماكن البعيدة أنا وأخوتي ونذهب به إلى والدتي لتخبز لنا في تنور طين جارتنا.**

تشكّل الهروب نحو القرى في ذاكرة جيلي على أنه الفترة الأجمل، ونحن الذين كنا غير واعين لما يحدث أو لا نعير اهتماماً للأحداث بقدر اهتمام الكبار المنشغلين بقناة «العالم»[2] التي تخبرهم عن مدى ضخامة الجيش الأمريكي وجهوزيته للقضاء على النظام. كان الأجمل لأنه كان ما يهمنا وقتها هو اجتماعنا جميعاً

[2] قناة تلفزيونية إخبارية إيرانية تبث باللغة العربية.

مع بعضنا البعض وتوقف المدارس واستمرار اللعب حتى الفجر.

بقينا نتنقل بين القرى لما يقارب الشهر. ولأن أمثالنا لا يستطيعون العيش خارج منازلهم لعدم كفاية ما بجيوبهم، قررنا العودة والخيار كان بين الموت بأحد تلك الانفجارات أو انتظار انتهاء تطهيرهم.

## الدليل الكامل للنجاة

في هذه الأثناء كبرنا كل يوم. لاحظنا ذلك من تعلمنا السريع لأساليب الحماية: كيف نصم آذاننا وكيف نستبدل زجاج الشبابيك بأكياس التراب حتى لا تقتل الشظايا أحد. كيف نستعين عند غياب الأساس بالبدائل، نجمع الحطب من الأماكن البعيدة أنا وأخوتي ونذهب به إلى والدتي لتخبز لنا في تنور طين جارتنا.

> **أضواء خضراء قبل الانفجار وطيارة أطلقنا عليها تسمية "شبح" فوق منازلنا تصاحب الحدث، وبين الإشارتين هناك أصوات الأطفال الذين يصرخون من الرعب، وبيتنا الذي ساد فيه صوت عمتي المطمئِن، وقدرتنا على الحذر بعد تعلمنا كيفية حماية أنفسنا ما أن فقدنا الشبابيك التي تكسرت من الانفجارات. نخرج إلى الحديقة، نجلس في الوسط ونختبئ تحت "عباية" العمة وننتظر انتهاء التفجيرات.**

كان أخوتي أجرأ مني، يذهبون في النهار باتجاه المعسكر ليفرغوا الصناديق من عتادها ويأتوا بها إلى البيت لنكسرها معاً. المخاطرة تستحق لأن الصناديق الخضراء تلك من أجود أنواع الخشب وتختصر الكثير من الجهد في البحث عن أعواد وكراتين لتحويلها إلى حطب. أما الطعام فكان يُطبخ على نار بدائية، نضع طابوقاً[3] ونصنع دائرة ثم نشعل الحطب تحت قدر الطعام.

كنت أنا، بالإضافة إلى عملي كجامعةٍ للحطب في أوقات فراغي بعد توقف المدرسة، ألعب لعبتي المفضلة التي كانت الهروب باتجاه الدبابات في النهار لضربها بالحجار. كنا قد تأثرنا بمقتل محمد الدرة، وكنا نريد المقاومة مثل الفلسطينيين. لكن تحويل فوهة رشاش الدبابة نحوي كان كفيلاً بإعادتي إلى أرض الواقع وجعلي أدرك مدى صغري أمامها.

أضواء خضراء قبل الانفجار وطيارة أطلقنا عليها تسمية «شبح» فوق منازلنا تصاحب الحدث، وبين الإشارتين هناك أصوات الأطفال الذين يصرخون من الرعب، وبيتنا الذي ساد فيه صوت عمتي المطمئن، وقدرتنا على الحذر بعد تعلمنا كيفية حماية أنفسنا ما أن فقدنا الشبابيك التي تكسرت من الانفجارات، لذا كنا نفتح ما تبقى منها، ونخرج إلى الحديقة، نجلس في الوسط ونختبئ تحت «عباية» العمّة وننتظر انتهاء التفجيرات.

## النجاة من حبل المشنقة

جميعنا في المنزل يركض. أبي والدموع في عينيه ويصرخ «لقد سقط النظام، سقط صدام». هلّلت والدتي وعمتي، وبكى كبار العائلة. لم نكن نعلم نحن الصغار ماذا حدث ولماذا كل هذا البكاء حتى جاء عمي

[3] الآجُرّ أو الطوب.

بعد يومين وجلس على الكرسي، وقال بصوت هادئ: لقد وُضِعت حول رقابنا الحبال ودخل الأمريكان إلى المقرّ ليحررونا.

كان بيننا وبين الموت نَفَسٌ واحد. عرفنا بعدها أن والدي وعمي وأولاد عمي جميعهم من المعارضة منذ سنوات، ولأن للحيطان آذاناً كما تعلّمنا في زمن صدام، لم يُناقَش الأمر أمامنا يوماً. عاد عمي إلى بيته وهو سعيد بانتصار قضيّتِهِ التي أفنى سنوات من عمرِهِ عليها، لكنه بعد يومٍ واحدٍ خرج إلى الشارع ليودع ابنه الذي قُتل بثلاثين طلقة في الرأس من بندقية أحد الرفاق.

## بيتنا في ظلّ القضية الأشهر

ذهب الناس نحو الدوائر والمعسكرات والمصارف والمخازن الغذائية لنهب ما بها لاعتبارات الحق العام للمواطن أو كرهاً وبغضاً بنظام البعث، فما هو للدولة بالضرورة هو ملك المواطن، وما هو عائد لصدام هو ملك للشعب، وقد وصل الأمر عند بعض الأشخاص الى سحب الأسرّة من تحت مرضى المستشفيات.

فتحت أسواق جديدة خاصة بتجارة السلاح، وبدأت معها الإطلاقات العشوائية، والصراعات. داخل بعقوبة، نشأت معركة بين عصابتين أدت إلى مقتل ثلاثة أفراد، لتصدر بعدها فتوى دينية تمنع السرقة وتعتبر كل ما أُخذ حراماً ويجب إعادته.

فتحت الجوامع أبوابها ليس للعبادة، وإنما لاستقبال ما سُرِق.

قرر أخي قبل صدور الفتوى الاستفادة من الفوضى وسرق سلاحاً (نص أخمص)، وعند عودته، اندلعت معركة بينه وبين والدي الذي أجبره على تسليم البندقية. كان والدي ضدّ نظام البعث، لكنه لم يكن ضد الدولة، وكثيرون مثله رفضوا نهب المؤسسات الحكومية.

آمن أبي ومن يشبهه بأن العراق سيتغير للأفضل، خصوصاً مع خفوت الحرب بعد شهرين وفتح الاستيراد ودخول بضائع لم نعرفها، وتسليم رواتب الموظفين بالدولار الأمريكي بدل الدينار العراقي. كانت رؤية «الشايب الأمريكي» على العملة الخضراء بدل وجه صدام على العملة العراقية هي الصورة التي رسمت الفرحة على وجوه الكثيرين.

## «ماتركس» في بيتنا

بالنسبة لنا نحن الصغار، كان الحدث الأبرز هو دخول التلفاز الملون والأقراص المدورة. لأعوامٍ كنا نستأجر هذه الأجهزة ليلة الخميس، لنجتمع جميعنا محدقين بالشاشة الصغيرة لنشاهد كيف يصد البطل بيديه الفارغتين كل الطلقات النارية.

صار عندنا جهاز خاص.

كان أخي الأصغر يقول إننا نحتاج إلى «ماتركس» في العراق ليصد كل تلك الطلقات التي نسمع صوتها ونعرف من خلال الكبار ما تفعله بالبشر. كنا نهز رؤوسنا موافقين، وحده أبي كان يضحك من قلبهِ لسذاجتنا.

كانت قصة «الماتركس» تدور حول الشخص المنتظَر الذي سوف يقاوم الأشرار، وخارج المنزل كان هناك

أشخاص يُعدّون خطة كاملة لتحويلنا من أطفال إلى جنود وإقناعنا أننا يجب أن نحارب الشر.

آنذاك، ظهرت مقرات وجوامع تدعو الأطفال إلى حفظ القرآن، وتمنحهم هدايا مقابل مثابرتهم. بعد انتشار الخبر بين أقراني، قرّرتُ الذهاب لاستكشاف الأمر. كان أشبه بالتجنيد، فقد أعطوني حجاباً وعلموني كيف أقرأ الآيات، وبدأت المعلمة بالحديث عن الصلاة والصوم ومحاربة الكافرين. عدتُ يومها إلى والدي وتحدثت معه وترك الخيار لي. لم يستغرقني الأمر كثيراً حتى قررتُ الامتناع عنهم، لكن، وللصدفة، فإن من بقي مثابراً على تلك المقار، كان من ضمن الذين انضموا إلى «القاعدة» عام 2006.

**كان أخي الأصغر يقول إننا نحتاج إلى «ماتركس» في العراق ليصدّ كل تلك الطلقات التي نسمع صوتها ونعرف من خلال الكبار ما تفعله بالبشر. كنا نهز رؤوسنا موافقين. كانت قصة «الماتركس» تدور حول الشخص المنتظَر الذي سوف يقاوم الأشرار، وخارج المنزل كان هناك أشخاص يُعدّون خطة كاملة لتحويلنا من أطفال إلى جنود وإقناعنا أننا يجب أن نحارب الشر.**

أخذ المجتمع يتشبّع بالخوف والرهبة، وكانت ديالى قد غادرت مرحلة «الدجاجة» لتنخرط في جوٍّ تهيمن عليه أفكار دينية متطرفة. اكتسحت الشوارع التسجيلات الدينية، وبدأت كثير من الجوامع والمراكز باستقطاب الأطفال والمراهقين لتجهيزهم بأفكار جهادية.

كانت المجموعات الشيعية والسنية، على حدّ سواء، تعمل وفق المنهجية نفسها.

نحن الأطفال كنّا الهدف الأساس. كنا بيادق رغبوا في كسبها لتحريكها. أفكارهم، كنا نسمعها عبر مكبرات الصوت وفي الشوارع، منتشرة في كل مكان. كان أهلنا يعاودون تنظيف آذاننا وأدمغتنا في نهاية اليوم من كل ما أُجبرنا على سماعه.

تأثر الكثير منا وانضموا إلى الحركات الجهادية التي تشكلت من بقايا خلايا البعث، ومن مجموعات مسلحة جديدة مثل «كتائب ثورة العشرين» والحركة النقشبندية وغيرها..

**انضم كثيرون إلى الحركات الجهادية التي تشكلت من بقايا خلايا البعث، ومن مجموعات مسلحة جديدة. كانت المجموعات الشيعية والسنية، على حدّ سواء، تعمل وفق المنهجية نفسها. قام الجيش الأمريكي بحملة اعتقالات عشوائية، وسيق مراهقون وشُبّان إلى سجونهم التي بُنيت على عجل. كثيرون دخلوا أطفالاً مترددين بين الجهاد أو الانسحاب منه، فخرج أغلبهم أشد فتكاً أو أكثر ضعفاً.**

ردّ الجيش الأمريكي بحملة اعتقالات عشوائية، وسيق مراهقون وشُبّان إلى سجونهم التي بُنيت على عجل، كثيرون دخلوا أطفالاً مترددين بين الجهاد أو الانسحاب منه، فخرج أغلبهم أشد فتكاً أو أكثر ضعفاً.

وسط هذا كلّه، كان صوت عمّتي وكلماتها يقدّمان لنا الحماية ويحيطاننا بالأمان، رغم أنّها كانت أوّل المتضررين من الحرب: الجنين الذي كان في أحشائها توفي من شدة هلعها، لتلتحق به بعد فترة قصيرة.

# لائحة دفاتر «السفير العربي»

## 2018

- الاقتصاد الموازي: ما الذي تنتجه هذه المنظومة ؟
- الهجرات: العالم يسيل - قصص العالقين في دول العبور
- الهجرات: العالم يسيل - قصص الحرّاقة
- اليسار في المنطقة العربية وسؤال مكامن العطب - دراسة حالات

## 2019

- مسألة الأرض - مصر، السودان، تونس، الجزائر والمغرب
- إدارة الموارد الطبيعية: نهب وتبديد وزبائنية وقلة كفاءة - مصر، الجزائر، تونس، المغرب، السودان وموريتانيا
- إشكاليات في مقاربة دراسة العشوائيات - مصر، الجزائر، السودان، اليمن، تونس، المغرب والعراق
- تأنيث العمل الهش - مصر، الجزائر، السودان، المغرب وتونس

## 2020

- 2019: انتفاضات مبتورة النتائج، السودان، العراق، الجزائر ولبنان
- انتفاضات 2019: ابداع تأسيسي

## 2021

- مجابهة كورونا في المنطقة العربية: الفصل الأول
- مواجهة كورونا وفداحة إصاباته ليست تقنية أو طبية فحسب
- اللقاحات ما بين التباهي الفج والظلم المعيب
- التفاوت: مكانة النساء بين الاعتقاد الشائع والسائد، وبين الواقع والوقائع

## 2022

- مبادرات النسـاء: قادرات وعازمات
- سيرورات معارك النساء الكبرى
- التغيُر المناخي: لقد آن الأوان!
- هل مخططات مواجهة التغير المناخي صحيحة وكافية؟

## 2023

- كرة القـدم: لماذا تهمّنا؟
- عشرون عاماً عـلى الحرب على العراق

# Assafir Al-Arabi Folders

## 2018

- Informal Economy: What Does this System Produce
- Migrations: The World is Flowing - Stories of those caught in the transit countries
- Migrations: The World is Flowing - Stories of the borders burners (Harraga)
- The Left in The Arab Region and The Questions of Deficiencies - Case Studies

## 2019

- The Question of Land in Egypt, Sudan, Tunisia, Algeria and Morocco
- Natural Resource Management: Looting, Waste, Clientelism, and Incompetence
- Problematics in the Approach to Studying Informal Settlements
- The Feminization of Precarious Labour

## 2020

- The 2019 Major Uprisings: Severed Outcomes
- The 2019 Uprisings: A Constituent Creativity

## 2021

- Confronting Corona in The Arab Region: Act one
- Covid-19 Response: More than just a technical-medical issue
- Vaccines: Between Blunt Ostentation and Shameful Injustice
- Disparity: The Status of Women Between Prevalent Beliefs and Reality

## 2022

- Capable and Determined: Women Take Initiative
- Women's Major Battles: And Still They Fight
- Climate Change: It's about time!
- Are Climate Action Plans Effective and Sufficient?

## 2023

- Why does Football matter to us?
- The War on Iraq Two Decades On

يضيـئ هـذا «الدفـتر» عـلى اسـتمرار الحـرب عـلى العـراق، لأن نتائجهـا مـا زالـت فعالـة ومتفاعلـة، تسـتولد معطياتهـا كقنبلـة ارتداديـة متعـددة الانفجـارات، وتُنشـئ وضعيـات متجـددة في العـراق أولاً، المنهـوب والمسـتباح، وفي المحيـط ثانيـاً، وفي العـالم بأكملـه ثالثـاً.

كانت تلك الحرب على العراق حدثاً عالمياً... وما زالت!

النـص الأول افتتاحـي لميـزر كـمال عـن العـراق نفسـه وخرابـه، ثـم يتنـاول رجـا الخالـدي أثـر هـذا الخـراب عـلى دفـع النضـال التحـرري الفلسـطيني إلى مـأزق يقـاوم الفلسـطينيون اليـوم لجعلـه باطـلاً أو عـلى الأقـل لمنـع إطباقـه عليهـم. وتلتقـط منـى سـليم أثـر تلـك الحـال العراقيـة في وقتهـا عـلى مـصر وكيفيـة تمهيدهـا لثـورة 2011، ويسـتخرج عمـر بـن درة الـدروس التـي اسـتخلصتها الجزائـر وعـلى رأسـها أنّ تكبيـل المجتمعـات مـن قبـل السـلطات الاسـتبدادية المهيمنـة عليهـا هـو أسـهل وصفـة لإضعافهـا وجعلهـا غـير قـادرة عـلى مقاومـة أيّ عـدوان، بينـما يعكـس نـص سـمير العيطـة حـال الاضطـراب التـي عمـت سـوريا بعـد «سـقوط» العـراق. بعدهـا نقـدّم بالاشـتراك مـع «جُـمّار» - الموقـع العراقـي الشـاب الـذي خـرج مؤسسـوه مـن رحـم «السـفير العـربي» - ثلاثـة نصـوص هـي شـهادات معيشـة عـلى تلـك الفـترة، أولهـا لديمـة ياسـين التـي كانـت في حينـه شـابة صغـيرة، وثانيهـما لمبـين الخشـاني الـذي كان طفـلاً في الخامسـة وقـد بَقـرت مشـاهد أسـلحة الجيـش الأمريـكي عينيـه المريضتـين، وآخرهـا شـهادة لمنـال الحسـن، وكانـت طفلـة في السادسـة، عـلى كيفيـة احتـواء الرعـب والتعايـش معـه.

انسخ الصورة لزيارة موقع السفير العربي

أشرف «السفير العربي» على إعداد الأبحاث ونشرها على موقعه، بدعم من مؤسسة «روزا لوكسمبورغ».
يمكن استخدام محتوى النصوص أو أجزاء منه طالما تتم نسبته للمصدر.

السفير العربي
يصدر عن جمعية تقاطعات
www.assafirarabi.com

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
BEIRUT OFFICE
مؤسسة روزا لوكسمبورغ مكتب بيروت